قصص

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

نجم والي

شرقيات

محيي الدين اللباد

ليلة ماري الأخيرة

كم ليلةً دارت بقامتها الجميلة فوق تلك المسارح، ألف ليلة وليلة؟ كلا أكثر. لقد فاقت شهر زاد التي لو التقت بها لقالت لها: أسلمك الأمور أيتها الأخت المبجلة أنت وحدك الكفيلة بإدارة الرؤوس. ولكنها لم تكن مقتنعةً أبداً بما تقصه، كانت تبحث دائماً عما هو أجمل، عن سحر لاتدرى أين، ولكنها على يقين أنها ستعثر عليه ذات يوم، وفي مكان ما. ويزيدها حماسها أن تعرف أنها سليلة لشهرزاد لاغير. لقد امتلكها ذلك الهاجس منذ أن بدأت التحرك فوق المسارح. يا الله كم كانت تتحرك بشموخ فوق الأبسطة الشرقية التي كانت تفرشها هناك. لم تتخل يوما ما عن عدتها. كانت كلما ذهبت إلى المسرح تأخذ عدتها معها: بساط شرقي كبير، مخاد شرقية صغيرة، ثوب حريري براق، شيلة عراقية سوداء، حجول كبيرة من الفضة، أسوار ذهبية، أقراط فضية كبيرة، أعواد ومساحيق من البخور. لقد كانت تحتفظ بعدتها وكأنها تحتفظ بكنز كبير.

نجم والي قاص من العراق، يعيش في المانيا، تعكس قصصه خصوصية الواقع العراقي، ويحاول من خلال لحظات مألوفة أن يكشف المتواري عن العيون، ويعي أبعاد التجربة المختلفة.

ليلة ماري الاخيرة
نجم والي

الطبعة الأولى ١٩٩٥
© حقوق النشر محفوظة ١٩٩٥

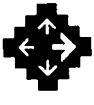

دار شرقيات للنشر والتوزيع
٥ش محمد صدقي، هدى شعراوي
رقم بريدي: ١١١١١
باب اللوق، القاهرة
ت: ٣٩٠٢٩١٣ س.ت: ٢٦٩١٩٨

غلاف وإخراج: محيي الدين اللباد

رقم الايداع ٤٠٠٦ / ٩٥
الترقيم الدولي I S B N 977 - 5486 - 67 - 6

ليلة ماري الأخيرة

نجم والي

دار شرقيات للنشر والتوزيع

قصة هروب جندي عادي

أنا جندي عادي. ربما أبدو للبعض لست عادياً. على العموم أعرف ماذا تعنيه هذه الكلمة بالضبط. مشكلتي هي أنني لا أجيد تنميق جملي كما يفعل أخي كاتب القصة والذى يشغل نفسه بصياغات غير عادية والذي كثيرا ما أبدى تضايقه من كلمة عادي. بصراحة أحب هذه الكلمة ربما لأنها لا تكلفني العناء الكبير في استخدامها، وربما لأنها كثيرة الالتباس عند الكثير من الأشخاص عندما يسمعونها[١]، وأنا أريد إدخالكم في هذه المتاهات أيها القراء الكرام. لقد ألقيت بتلك الكلمة راغباً في تحديد مدخل القصة التي أرويها لكم والتي بدلت حياتي تماما[٢].

المهم سأحاول إعفاءكم من الكثير من الشروحات وأسمعكم القصة بطريقتي، طريقة الجندي العادي. ها إنكم ترون استعمالي الكلمة مرة أخري. علي أية حال يجب أن أذكر أيضا أنني أومن بعاديتي لسبب بسيط، هو أنني لم أختلف عن الكثير من زملائي الجنود المكلفين من غير الخريجين. كانت تجمعنا صفة واحدة هي الغياب عشرة أيام بعد كل إجازة والالتحاق قبل اليوم الحادي عشر. إنه أمر غريب أيها القارئ الكريم. أرجو ألا يزعل الخريجون منكم. إن مالاحظته طوال خدمتي هو أن الخريجين كانوا أكثر انضباطاً وطاعة من كل الجنود. كانوا حريصين على انهاء خدمتهم في الموعد دونما مخالفة. لماذا؟ لا أدري. لقد حيرني الأمر طويلاً. مثلاً يوم الأحد عندما كان يأتي نائب ضابط (البطرية) ويقرأ «الأخضر» سجل العقوبات. (هكذا كان يسميه لغلافه الأخضر). كنا نخرج كمخالفين نحن الجنود العاديين فقط. قد يستفزّ هذا الكلام بعضكم. ليكن ما يكون.

سأبدأ بالكليشه مرة أخري: أنا جندي عادي. وعندما اندلعت الحرب، لم أفكر بالهروب إطلاقاً. كنت انتظر إجازة ما للغياب كما كنت أفعل سابقاً. ولكن لم يحصل أي شيء من هذا القبيل. لم نحصل على أية إجازة وأصبح النزول إلى المدنية حلماً بعيد المتناول. وعندما استطعت

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

مغادرة البطرية، مرتين لجلب أزراق البطرية مع جنود الحانوت، لم افكر بالهروب لأني كنت أعرف أن مجرد محاولة ذلك تحرمني من كل امتياز شبيه بهذا. نسيت أن أذكر لكم أنني جندي من جنود رعيل المقر- البطرية الثانية - كتيبة الاستكان الثانية. أذكر ذلك ربما ليشفع لي بعض الشيء وتبرير عدم هروبي تلك الأيام. ذلك لأننا كرعيل مقر لم تمسنا الحرب بصورة مباشرة تماماً، لأننا نتبع مقر آمر البطرية. وبما أنه، كما يقولون، العقل المخطط لبطرية يجب المحافظة على حياته وبناء مقره في الخطوط الخلفية.

هكذا يفسرون أيضاً وجود مقر القيادة العسكرية العامة في بغداد. لكن ما علينا من كل هذه الثرثرة الصغيرة كما يسميها أخي. إذ كما يقول يجب ترك كل هذه الاستطرادات والدخول في القصة مباشرة والتركيز على محورها. يجب الاعتراف أيضاً أنها محاولتي الأولى في كتابة القصة. «غيرة» كما يقول أخي كاتب القصة والذي لم ينس أن يدخل فرويد في تحليله التقليدي له كما يعتقد. لكن ما يكون لقد قررت دس أنفي بهذا الفن.

ورأيت من الأفضل البداية في كتابة قصتي أنا الجندي العادي الذي بدل أن يلتحق في اليوم العاشر هذه المرة قرر الهروب، غير تلك الخارقة بحياتي . إذ كما يعلم القارئ الكريم أن فرق الإعدام تصول وتجول في طول البلاد وعرضها. ولأني سمعت من أخي أكثر من مرة الأدب هو الطريقة الوحيدة لتخليد الشخص، قررت الخوض في هذه الأمور قاصاً عليكم كل ماحدث بطريقته الوحيدة لتخليد الشخص، قررت الخوض في هذه الأمور قاصاً عليكم كل ماحدث بطريقة جدتي التي كانت تتحفنا كل مرة بواحدة من روائعها قبل أن ننام، غير مهتم بتعليق أخي الذي أطلق حكمه قائلاً: «طريقتك سردية كلاسيكية مملة». ليكن مايكون. لتكن سردية، كما يشاء هو!؟ وأقول من صميم قلبي لأولئك الذين بدأ الملل يدب في قلوبهم أن يتركوا القصة ويتابعوا قراءتهم للمجلة التي ربما فيها من المواضيع ما يغني. إذ أن قصتي -وهذه حقيقة أعترف بها بصوت عالٍ- لا تختلف عن المئات

من القصص التي تتناقلها مقاهي البلاد. وللذين ستيابعون القراءة سأبدأ بحكاية الجندي العادي الذي هرب واعداً إياهم عدم نسيان إجراء بعض التنميقات الضرورية.

كما ذكرت لم أحصل على إجازة بالمعنى المعروف على الإطلاق. إنما فقط، حصلت على مأموريات كثيرة يمكن تسميتها إجازات، وبما أنني الجندي الأقدم في رعيلنا أناطوا بي مهمة تسليم توابيت جنود بطريتنا الموتى إلى ذويهم. كل مرة كان يصطحبني أحد الجنود في هذه الرحلات. في الحقيقة، وأقولها بصراحة قد تغيظ بعضهم، لم تضايقني تلك المأموريات أبدا. صحيح أنها مهمة ليست عادية كما كان يقول آمر البطرية. إذ يجب عدم الدخول مباشرة في إخبار أهل الجندي عما حل به. إنما ينبغي شرح موته بطريقة دبلوماسية. على أية حال لقد تعلمنا نحن أولئك النفر الذي كان يقوم بتلك العملية التصرف بدبلوماسية فائقة ودقيقة. ذلك لم ينقذنا- وأتحدث عني بالذات غير راغب في الحديث عن الآخرين- بعض الممرات من شتائم بعض النساء الجنوبيات فلا تنفع معهن حتى دبلوماسية الله.

إذ حتى للدبلوماسية حدودها. ذلك ما أتقناه خلال مأمورياتنا. ها إنكم تعرفون سر مهنة جديدة. لقد كنا مرنين حتى مع أنفسنا. تعودنا على مهمتنا ورحنا نؤديها بحذافيرها. لقد رأيت عوائل كثيرة. وكان عليّ أن أتفهم وأكون مستعداً لردود أفعالها، أن أواسيها، أهدأ عنها غير ناسٍ بالطبع في قرارة نفسي أنها مجرد دقائق وتنتهي وبعدها سأستمتع بإجازتي التي كانت تهمني أكثر من كل شيء. هكذا نقلت أكثر من عشر جثث إلى ذويها. إلى الناصرية، الديوانية، بغداد، البصرة، العمارة، بعقوبة، السماوة. وأنا أتحدث عن هؤلاء لأنهم سقطوا أثناء تسلمي المأموريات. إذ قبلي كان قد تتابع على المهمة ثلاثة جنود من رعيل المقر. وسقطوا هم الآخرون. يجب أن أذكر أن الجندي الأول عماد وهو كردي من خانقين، ينتظر موتي ليتسلم هذه المهمة، ذلك

لأنه يأتي بعدي في القدم. ولكن ها أنا كما ترون أفسح له المجال بهروبي. ولكني أشك بتسليمهم إياه المأمورية بسبب لهجته إذا ما تكلم العربية.

لاتستغرب أيها القارئ العزيز اذا ما قلت إنه يتمنى اختفائي، بل موتي. لقد باح لي بذلك مازحاً. إلا أنكم تعرفون المثل «مزاح وغط يدك» إذ أن مزاحه لا يخلو من الجد. لماذا؟ أنا بالذات، وأعترف أمامكم لأترك لكم الحكم، قد تمنيت أن يحدث شيء ما للجنود الأقدم مني. صحيح لم أتمنَّ موتهم، إلا أن رغبة غامضة باختفائهم كانت تتملكني دائما[٣].

علي العموم، ما أعرفة هو أنني كنت أفرح عند سماعي بالمأمورية. أريد أن أعترف لكم وبدون حذلقة، إذ أنا أحاول بعض الأحيان اللف والدوران وألا أعترف بفرحي لموت جندى من بطريتنا. صعب تفسير ذلك، انه ليس فرحاً ما مباشراً لموت الجندي بالذات كجندي. فالأمر يبدو وكأنه مجرد حادثة حيادية تحدث، في مكان، في عالم بعيد عني تماماً. هنا لا أستطيع شرح الأمر. ربما سيساعدني حصيف منكم! لا أدري. إنني مشوش بصدد هذه المسألة. ولكن ليكن ما يكون يجب القول وبصراحة: إنني كنت أفرح وببساطة عندما يتسنى لي النزول بسبب موت أحدهم. إن مجرد التفكير بسلوكي آنذاك يحزنني ويجعلني أخجل من الاعتراف أمامكم. لقد قررت اليوم البوح بكل الحقيقة. نعم كنت أبتهج وفي رأسي أمر واحد: كيف أقنع أهل الجندي بأن موت ابنهم أمر عادي جداً (ها أنا أستخدم كلمة عادي مرة أخري. كم مملة هذه الكلمة!؟) إحدى العماريات ركضت خلفي بنوثية وهي تصرخ: «روح للنـ ....» إن حيائي يمنعني من تكملة هذه الجملة، لقد رفضت استلام تابوت ابنها وقال: «أخبر رئيسك أريد ابني عدل.» وذلك الشيخ الناصري العجوز الذي بصق في وجهي قائلا «تريد تقنعني بموت ابني. امشي».

كلا. في تلك الفترة لم يؤثر عليّ أي منهم. لقد استحوذت عليّ

المأمورية وبحماس إلى أن حدث قبل أسبوعين فجعل حياتي تتبدل وأدخلني سجل الهروب.

متى حدث ذلك؟ الآن أشبه بالضباب يتزاحم أمام عيني ويجعل الرؤية تختفي. أمامي تظهر الآن بالذات هيئات ميتة، أفواه، أيد، صراخ، تناد. شتائم. وهناك فى زاوية ما، في رأسي، يجلس احدهم ويعفط لي. نعم يعفط وبصوت عالٍ. ولن ينفعني حتى أخي ولا أستاذه سيجموند فرويد. لقد انتهى الأمر. واختفى الحماس السابق ليحل محله عذاب، وهن، تعب، ضعف، عطش. مالذي حصل؟ مالذي يجعل شفاهي وأقدامي ترتجف. لماذا موتي الأولى. إنها المرة الأولى التى أدرك فيها أني أحمل مأمورية جثتي، أنا الجندي العادي الذي كف عن كونه عادياً منذ أسبوعين: وبالذات عندما طلبوا مني تسليم جثة محمد إسماعيل.

من هو هذا الـ محمد إسماعيل» سأحاول عزيزي القارئ ترتيب الأمور مرة أخرى وجعلك على دراية من كل ماحدث.

قبل شهر بالذات نزلنا أنا وأباه في مأمورية. كان الليل قد هبط كثوب من الحرير الأسود. وبدا الشارع خالياً. كنا نسمع وقع بساطيلنا على الأسفلت. ومن نهاية الشارع لمح محمد بيتهم الواقع وسط الشارع. فهمس لي بفرح: لايهمك. أكيد العشاء جاهز. على الأقل نأكل دجاجة مشوية. أعرف أمي دائما تترك واحدة في الثلاجة. كان هو قد اتصل بهم تليفونياً من الكوت حيث سلمنا جثة أحد الجنود. وبالفعل دخلنا إلى دارهم الكائنة في دور الشكك. كنا تعبين بعض الشيء تلك الليلة، اذ لم نحصل ببساطة على سيارة تقلنا من الكوت إلى الديوانية بسهولة، لذلك كان علينا أن نركب في البداية إلى بغداد ثم الديوانية. تعشينا بسرعة في حديقة بيتهم. لقد كانت ليلة بهيجة. وإذا استعملت تنميقات أخي القصصية لقلت، كانت ليلة

مشعة ببضاء، تدلت النجوم فيها كعناقيد فضية. إن ماجعل تلك الليلة تشع أكثر هو جلوس إلهام أخته فبالتي. ما أزال أرى شعرها الممشط بجمال أمامي، والبثور التي انتشرت على خدها حتى هتفت في داخلي «ياعيني على حب الشباب» لم تنس عصر بعضها أثناء جلوسنا حتى منعها محمد ساخراً. لقد كنت أشعر بسمرتها تشع في المكان. وبخديها يزدادان حمرة كلما التقت نظراتنا. لقد امتلأت عيناها ببريق جعلني أرتجف. فيما باتت شفتاها الغليظتان بخطوطهما المستقيمة ممتلئتين دائماً وكأنها بللتهما في التو. لقد جعلت إلهام رأسي يضطرب. هي أيضاً اضطربت. لم يكن وهماً أو هلوسة. لقد لمحت ذلك في عينيها. وعندما انتهينا من العشاء تلك الليلة وذهبنا إلى النوم، كنت على يقين أن نظراتنا الأخيرة قد تعاهدتا على أمر ما قبل الذهاب إلى النوم. وهذا ما تأكد لي في الصباح إذ عندما انتهيت من غسل وجهي وعبرت مجاز الدار للدخول إلى غرفة الضيوف حيث نمنا أنا ومحمد، هتفت بي ضاحكة «صباح الخير» ثم وبعجلة وكأنها تريد انقاذي من تحرجي. تقدمت نحوي وباستني بشكل خاطف وهربت لتختفي في المطبخ. لم أنس تلك القبلة. بل لا أنوي نسيانها. إذ التصقت على شفتي. وما أزال استطيع تذوقها. وفي ذلك اليوم عندما ذهبنا إلى وحدتنا كنت مرحاً طوال الطريق حتى محمد هتف بي مازحا «عاشق ها؟» لم أعلق، يجب أن أذكر أيضاً أن محمد هو الآخر لم ينزعج من المأمورية التي كانت الأولى بالنسبة له. إنما ألقى بجملة حيرتني: «إن شاء الله نحصل على مأمورية أخرى.» لا أدري لماذا امتعضت من جملته. ربما لهذه الـ «إنشاء الله». ثق عزيزي القارئ. مع فرحي بكل المأموريات التي قمت بها لم أجرؤ على إطلاق كلمة «إنشاء الله» هل لأن محمد من الخريجين الذين اعتادوا على هذه الطاعة[٤].

في تلك الليلة عندما وصلنا البطرية قررت كتابة رسالة إلى إلهام

لتسليمها لها في مأموريتي اللاحقة. كنت على يقين أنني سأذهب مع محمد ولن أذهب إلى أهلي في قرية الشنافية في الديوانية (في المرة الأخيرة لم أفعل ذلك أيضاً، إذ في المرة السابقة فكرت فقط بالعشاء عندهم والذهاب إلى أهلي ولكن صعوبة النقل في الليل، وربما هذا هو السبب الأول ورؤيتي إلهام جعلتاني أرجيء ذلك.) لقد استغرقت أسبوعين في كتابة الرسالة. وكنت أحاول جاهدا تنميق كلماتي. ربما كان عليّ الذهاب إلى الجندي سلمان الذي كان مشهوراً في كتابة رسائل الحب إلى جنود البطرية. لكني لم أشأ لأنني كنت أرغب في الحديث لها عن حياتي كلها دون ترك شيء. لقد كنت فخوراً برسالتي انتهيت منها بعد أسبوعين، أنا الجندي العادي سعدون خلف الذي لم يفكر آنذاك فقط الذهاب في مأمورية من أجل نزوله، إنما من أجل تسليم تلك الرسالة إلى إلهام.

ولكن حدث ما جعل هذا الجندي العادي يضطرب، يحتار. لقد دخل في متاهة بلا قرار. متى حدث ذلك؟

مرة أخرى كان ذلك ليلاً ثقيلاً قد هبط على الجبهة. وهذه المرة لم تتدل عناقيد فضية فى السماء. إنما نجوم. نجوم اكتسبت لوناً فضياً لاغير. نجوم تشع فى تلك المساحة الشاسعة التي بدت كقذيفة سوداء، ولكن قديمة، غير براقة. إنما حالكة كثوب الحداد. في تلك الالتماعات بدت تلك الخنادق الصغيرة التي حفرها الجنود كآبار قديمة، وكأنها حفرت هناك منذ الأزل. وكأن يداً مجهولة ألقت بالتراب بعيداً، فيما بدا الجنود هناك كنمل واظب على حفر أنفاق صغيرة، لالجمع قوت شتائه إنما لإنقاذ جلده. هكذا بدا المشهد. وكأنه كان هناك منذ أن بدأت جدتي بقص أول حكاياتها عن منكر ونكير أوعن الملك سليمان الذي سحر العبد ليحبسه في قمقم ويختمه بخاتمه السحري.

الليل كانا سليماناً. الخندق خاتمة. والجنود هم رعيل العبيد المختومين

وأنا كنت أحدهم. أنا الجندى العادي الممل الذي كان عضواً من عصبة من الجنود المسدودين في خواتم سحرية.

آخ. مالذي يجعل ثوب القذيفة القاتم يطير، الليل يشع ولكن لم يطرده النهار هذه المرة، نما شظايا. وذلك النمل الذي بدا ساهماً لأمر ما في نومه بعد يوم حرب متعب، ينتشر، ينتشر لاكما يشاء هو، بل كما تشاء تلك الشظايا القاتلة، والتي يطير معها عويل، تناد، صراخ، بل أجزاء جسدية. هل أدرك النمل تلك الليلة أن الحرب لا تعرف خطوطاً خلفية؟ لا أدري.ومن مكاني كنت أرى كيف أن الدخان لم يهدأ أيضاً حيث انتشرت الرعائل الأخيرة التي ابتعدت بمسافة قليلة عن رعيلنا.

لم تكن عادية ابداً. كلا. تلك الليلة التي بدلت الجندي رقم ٦٥٧٢٣٨ . الجندي العادي الذي هو أنا والذي لم ينتشر أجزاء كجنود عاديين آخرين، إنما عاش تلك .. الليلة وكأنها حكاية قديمة من حكايات جدتي التي تطلق فيها تحاذيرها.

كان الصباح قد بزغ. ومن خندقي كنت ألمح دخاناً غير عاديٍّ، بقايا حطام، جثث بعض جنود رعيلنا. وبوهن بالغ خرجت من جحري دون أن أنسى تحسس الرسالة التي كتبتها إلى إلهام. تقدمت إلى مقر البطرية الذي ظل شاخصاً في مكانه ككل مرة لا أدري كيف يستطيع هؤلاء الضباط معايشة كل قصف؟ وعندما لمحني نائب ضابط البطرية هتف لي: هيئ نفسك لمأمورية. «هذه المرة لم أفرح. لا أدري لماذا؟ لقدكان شيئا يحمل معه الخوف، يجعلني أشعر بأن مأموريتي هذه المرة ستختلف تماماً. لذا كنت خائفاً من السؤال أو البحث عن الجنود الساقطين من رعيلنا، ناهيك عن الرعائل الأخرى. بصراحة أيضا لم أحزن بقدر ماكنت خائفاً. إذ في داخلي تنفس شيء، شخص آخر. ربما كنت مرتاحاً بعض الشيء عندما تحسست الرسالة

في جيبي. ولكن كما قلت لكم لم يختف خوفي. وحاولت تلك الساعة تخيل لقائي بإلهام. لقد نسيت الحطام دفعة واحدة. وفكرت: سألتقي بها. سنذهب إلى المتنزه العام وإلى السينما. يقيناً سنذهب لرؤية فليم هندي أو مصري، وسأجلس بجانبها. سأحاول تقبيل شفتيها الشهوانيتين، سأمد شعرها، وأمد يدي للمس ساقيها. ولكن لن أتعدى حدود لباسها الداخلي. سأداعب صدرها أيضاً. سأحاول لمس زغب الحملتين، واذا اقتنعت، سأقتنع، سأحبها وسأحاول إرضاءها. كنت على استعداد لتقبل كل ماتريده. لقد امتلكتني منذ قبلتها الصباحية تلك. إنها سلواي. وقررت ذلك اليوم النزول بعد المأمورية لزيارتهم والعدول عن الذهاب إلى أهلي.

هكذا فكرت عزيزي القاريء ذلك الصباح. لقد هيأت حقيبتي. حلقت ذقني (لم أنس رغم أيام الحرب الاستغناء عن حمل أدوات حلاقتي) لم أنس أن أضع بعضاً من الكولونيا. ثم اتجهت إلى مقر البطرية لتسلم المأمورية. دخلت علي نائب الضابط الذي اصطحبني مباشرة إلى قلم البطرية. هناك سلمني كتاب المأمورية، وقال لي: «حصتك هذه المرة الجندي محمد، حاول أن تكون مع أهله دبلوماسياً».

لو كان قد حثني عن موتي أنا ربما كنت أكثر هدوء واقتناعاً بالأمر. ولكن أن تلقي بجملته تلك وبحيادية الجنود العاديين!! لوكنت اضطربت فقط لهان الأمر. لقد شعرت فجأة ببرودة تسري فيّ من الرأس حتى أخمص القدم. فيما جف فمي تماماً. ولم ينفع تحريك لساني الذي شحب يقيناً تلك اللحظة. ولم أحس سوى بيدي الأخرى وهي تمتد إلى جيبي لتحسس الرسالة التي تركتها هناك إلى إلهام. وبدون وعي فيّ وكأن الذي كان هناك ليس الجندي العادي سعدون خلف المرقم ٦٥٧٢٣٨، إنما جندي آخر يفتح فمه ليقول وبهدوء: حاضر سيدي. والذي يغادر الجبهة ذلك الصباح متجها إلى الديوانية بصحبة كتاب مأمورية هذه المرة فقط، إذ لم يجدوا من

الجندي محمد سوى سائل لزج لم يصلح حتى لوضعه في كيس نايلون. يغادر دونما التفكير بأمر معين. وكأن رأسه فرغ تماماً من كل قرار. والذي منذ أسبوعين ينتقل بين الشنافية والديوانية مستعملاً كل حيل الجنود الهاربين. منذ أسبوعين يمر ويتتابع أمام بيت الجندي محمد، حريصاً ألا يلمحه أحد، دون أن يدري فيما إذا كان عليه تسليم كتاب المأمورية أم الرسالة التي استقرت في جيب قميصه.

هامبورغ ٨٨/١٢/٤

❖

حدث ذات مساء

دخل علي إلى المقهى، واتجه مباشرة إلى الزاوية المجاورة للزجاج، جلس هناك وكأنه يعرف المكان منذ زمن بعيد. خلع بيريته بوهن ليضعها بجانب كيس النايلون الصغير الذي ألقى به جانباً والذي احتوى على منشفة كانت ما تزال رطبة بعض الشيء وأدوات حلاقة ومعجون وفرشة أسنان. لم تغير الحرب عادته بحمل هذه الأشياء رغم أنه وفي أحايين كثيرة لم يجد الوقت الكافي لحلاقة ذقنه أو تنظيف أسنانه.

أخرج سيجارة من جيبه، أشعلها ونفث دخانها بهدوء، ثم رفع بصره من خلال زجاج النافذة. تثاءبت شمس المساء أمامه، وبدت له حمرتها عالقة بالشجيرات القليلة المنتشرة في ساحة أم البروم. عاين ساعته وهتف في داخله «مازال هناك الوقت الكثير» يعرف أنهم معظم الأحيان يتأخرون في التسوق في سوق الخضارة، ولكن مهما حدث فإنهم سيظهرون في الساحة، فقد دأبوا على تناول الشاي في هذا المقهى قبل أن يتوجهوا إلى وحدتهم، يفضلون شاي هذا المقهي لأن صاحبه يعمله على الجمر. ومثلما هو دائما يستطيع تمييز سيارتهم من بوقها الخاص الذي عمله سائقها محسن. والذي كما باح لعلي يفزعه إفزاع أولئك الصعيديين الذين كانوا يفترشون الساحة كل مساء، محيطين بجرائدهم المفروشة على التيل المحتوية على قطع من الخبز والبصل وفي مرات كثيرة على الفلفل الأخضر أيضاً. ولايدري علي لماذا يفزع هؤلاء عند سماع البوق، إذ ربما اعتاد أصحاب المقاهي في الساحة على بوق محسن الذي يشبه هلهولة صارخة.

هذا المساء أيضاً لم تخل الساحة من الجنود المتواجدين هناك لهذا السبب أو ذاك. فمعظمهم ينتظر– كما هي الحال عند علي –قوافلهم العسكرية المارة من الساحة، فيما يكون القسم الآخر قد جاء للتو من وحدته في اجازته القصيرة. تمتلئ الساحة أيضاً بالكثير من النساء التي بدا على وجوهن الانتظار «ربما ينتظرن أزواجهن أو أبناءهن» هكذا اعتقد علي.

ورغم زجاج النافذة، فقد كان يصل سمعه ضجيج سيارات النقل وصياح شرطة المرور، وصراخ الباعة، ضجيج ربما كان أخف الآن عند هذه الساعات من المساء، عندما تبدأ الشمس بالانتفاخ ككرة من النار هابطة إلى الجزء الآخر من العالم، مثلما تفعل الآن، ومثلما تصورها علي الذي يفتح عينيه باتساعها كلما رآها تنخفض متجهة إلى جهة تختارها هي. كان قد علق النظر هناك، وكأنه يريد متابعتها. ليست هي المرة الأولى. يفعل ذلك في معظم المساءات. وأيضا ليست هي المرة الأولى التي يغزو فيها أسى خفيف وشفيف يجعل تقاطيع وجهه العشريني الناعمة تتقلص بحزن، حافرة خطين بين وجنتيه وأنفه، خطين ربما لا يصلحان إلا لرجل في الخمسين، وليس لشاب مثله، انتهى من دراسته قبل أشهر قليلة في معهد التكنولوجيا وحصل على إجازة للمرة الأولى. ترى لماذا تثير شمس المساء فيه هذا الشعور؟ في خندقه مثلاً، هناك في مكان ما على الجبهة، كثيراً ماكان يتخيل جندياً آخر في مكان ما، عند جبهة ما، يتأمل هو الآخر هذه البرتقالة المشتعلة (كما يطلق عليها في مرات أخرى)، ربما يسري الوجد فيه أيضاً أو الأسى ذاته، والذي يجعله يحس بشيء أشبه بالخوف يستحوذ عليه مرة واحدة، ويجعله ملتصقاً بالزجاج هناك غير شاعر بالسيجارة التي بدأت تحرق أصابعه وجعلته ينتفض قليلاً ليلقي بها تحت أقدامه.

لقد كان تعباً، تعباً حقاً، ذكريات يوم ممل ما تزال تطن في داخله، تختلط مع ضجيج المقهى. لم يستطع تمييز ما يقولونه وسط تلك الزحمة. لقد ازدحم المقهى برواده. وأياً كان ما يقولونه يبدو لعلي عصياً على الفهم. كانوا يبدون له مجرد شفاه تتحرك، تتحرك وبطنطنة فقط تلقي بما تريده. من مكانه لمح شفاه صاحب المقهى الذي أراد يقيناً، أن يسأله عما يطلبه، والذي لم يجد غضاضة من إجابته، أو الصياح به «شاي، شاي». ربما هو الآخر كان مجرد شفتين، إذ أنه لم يكلف نفسه عناء السؤال مرة

أخرى. اكتفى صاحب المقهى بهز رأسه بـ «نعم» وحمل فنجان الشاي له بسرعة عجيبة وكأنه كان مهيأ له هناك منذ ساعات، ليضعه أمامه على المنضدة، غير ناس أن يقول له بأن الدفع هنا مقدماً، وعلي دون أن يعلق بأيما كلمة يسحب درهماً من جيبه ويدفع به إلى الرّجل الذي ما إن يأخذه بين يديه حتى يختفي بين تلك الزحمة مرة أخرى، زحمة عجيبة من القرويين، والجنود والباعة المجاورين للمقهى.

حرك علي ملعقة الشاي وبدا له صوت ارتطام الملعقة مضحكاً مقارنة بذلك الضجيج، رفع الفنجان إلى شفتيه، عاين الساحة، لم تصل سيارة محسن بعد، ألقى نظرة إلى ساعته. وهمس «مازال هناك وقت»، ثم إلى داخل المقهى مرة أخرى. الضجيج ذاته. ولبرهة انتقلت عيناه إلى باب المقهى. وهناك توقفتا، عندما لمحتا صبياً صغيراً، يهم بالدخول. لايدري لماذا بدا الصبي له غريباً، إذ من مكانه لمح دشداشته التي تهرأت عند أطرافها بعض الشيء، فيما بدا شعره كثيفاً وغير طبيعي لعمره الذي لم يتجاوز العاشرة ربما. ومع دخول الصبي إلى المقهى، دارت عيناه. رآه يتجه بالذات إلى الجنود المتواجدين في المقهى. ووسط تلك الزحمة والضجة لم يفهم ماذا كان يريده الصبي. يقيناً لم يكن شحاذا إذ لم يفتح يديه طالباً شيئاً، إنما اكتفى بإلقاء أسئلة ما، ترى ما الذي يبحث عنه؟ لم يكتف الصبي بسؤال الجنديين اللذين التقاهما يخرجان من المقهى عند دخوله، بل تابع طريقه حيث جلس جنود آخرون في طرف المقهى. ومما أثار استغراب علي هو سخرية الجنود من الصبي، إذ لم يضحك منه الجنديان اللذان خرجا، إنما أيضاً الآخرون، حتى إن أحدهم والذي يبدو أنه رجل من الانضباط العسكري مسكه من كوعه ودفعه بصورة لاتخلو من العنف مسيراً له بالخروج من المقهى.

لمح علي الصبي يتحرك من مكانه، حائلاً نظراته بين زوايا المقهى، ثم ليتوقف مسمراً النظرة باتجاهه. كان ينظر إلى علي كأنه يعرفه منذ سنين،

لقد بدت نظرة الصبي لعلي حزنية، منكسرة، أثارت فيه الاضطراب. هذه المرة شعر بشيء أكبر من الخوف يغزوه، يتوزع بين الأوردة والشرايين. شيء أقوى من ذلك الذي تحمله له شمس المساء التي لم تترك الآن سوى أشعة حمراء، تمد لسانها إلى داخل المقهى وتصل حتى الصبي الذي وإن تردد في البداية بالتوجه صوب علي، إلا أنه استجمع قواه ليسير حيث جلس علي، وبحزم.

اضطرب علي ولمس كيس النايلون المستقر بجانبه، ثم رفع بيرته وأخذ يداعب أطرافها. وصل الصبي إليه. ولبرهة حدق أحدهما بالآخر، ثم فجأة اخرج الصبي صوتاً لم يخل من الانكسار أبداً:

– تسمح لي بسؤال؟

حدق به علي بعمق هذه المرة. ازداد اضطرابه. لقد بدا الصبي له وكأنه لم ينم منذ أيام، بل أسابيع. لمح كيف أن دشداشته لم تكن ممزقة فقط عند أطرافها، إنما أيضاً عند الصدر، فيما انتشرت بين ثناياها الكثير من الثقوب. وبدت تقاطيع وجهه وكأنها لرجل في الثلاثين. كان بإمكانه أن يدرك تعبه. وبدون أن يدري خرج صوته:

– أنت تعبان.

هز الصبي رأسه فأكمل علي.

– خذ مكانك.

تردد الصبي قليلاً، ثم تحرك وكأنه بدا يطمئن لعلي. جلس قبالته بعد أن ألقى نفسه بوهن هناك. وبصوت تعب:

– صار لي أيام كثيرة أتجول خارج البيت.

فسأله علي بفضول:

– أين بيتكم؟

لم يترك الصبي عينيه المصوبتين باتجاه علي. واكتفى بإشارة من يده التي رفعها باتجاه الزجاج:

– هناك. بعيد. المهم أني أمشي منذ أسابيع. أدور ...

وفجأة توقف الصبي. أشاح ببصره عن علي وكأنه خاف أن يكمل جملته.

لقد هجس علي تردده. ألم يكن هو الآخر متردداً في سؤاله للصبي؟ لايدري لماذا اندفعت عيناه في تلك اللحظة إلى قدمي الطفل اللتين استقرتا حافيتين تحت المنضدة، فيما بانت الفطور المنتشرة بوضوح قوي. لقد ذكرته بأرجل الفلاحين، أو بأولئك الذين يسيرون مسافات طويلة حفاةً. يقيناً أن الصبي أتى من مكان بعيد.

سأله:

– هل تريد شرب شيء؟

أجابه الطفل بسرعة:

– لا. أكلت اليوم. أنا أمر كل يوم بامرأة.

توقف وأشار بيده:

– هناك. إنها طيبة مثل أمي. تطعمني كل يوم. وكل يوم تشجعني على أن أدور عن ....

مرة أخرى توقف، فسأله علي الذي لم يرد أن يتركه هذه المرة في صمته:

– هل أنت منذ زمن طويل في البصرة؟

فأجابه الصبي:

– لا. نعم. منذ وقت ... آخ لايهم.

صمت وبدا ساهماً هذه المرة. لايدري علي لماذا كلما هم بسؤاله عن سبب تجواله، يرتد لسانه كصمام، ينغلق. ترى هل يخاف جوابه، ولماذا؟ مالذي يجعل اضطرابه يزداد كلما أراد إزاحة ذلك الصمام؟ بل ما الذي حصل لصمامات الرأس لتفتحا بهذا الاتساع، وتجعلا اضطرابه يزداد وألمه يثقل ويثقل.

لم يتركه الصبي في اضطرابه. إنما هتف من مكانه:

– إنك تشبه أخي. حرامات أنك لست أخي.

لقد اختفي ضجيج المقهي تماماً من رأسه، وكأن مايدور هناك يحدث في عالم آخر. أو كأنما يدور هناك يختفي في زوايا المكان، لقد اختفي كل شيء. ويبدو أن صوت هذا الصبي قد سيطر على كل جنبات رأسه. وبصعوبة بالغة أخرج صوته:

– ما اسم اخيك؟

فأجابه الصبي بسرعة:

–علي

هل أرسل أحدهم هذا الصبي ليزيد اضطرابه؟ أم هي صدفة تستفزه الآن وتجعله يشك في كل شيء؟ بل يفكر إذا كان هو أخوه بالفعل؟ وإلا فما الذي جعلهما عندما لمحا بعضهما ينظران أحدهما للآخر وكأنهما يعرفان البعض منذ زمن؟ لم يشأ أن يقول له إن اسمه أيضاً. بل

لم يشأ أن يسأل الصبي عن اسمه، إذ ربما سيجن عندما يعرف أن اسمه وليد كما هو اسم أخيه ذي السن العاشرة كما هي حال الصبي؟ كلا. وإلا فإنه مطب إلى الجنون لاغير. لقد اكتفى بالتحديق بعيداً عن الصبي، لقد علقت عيناه بالساحة وكأنه يود ومن أعماقه أن تظهر سيارة الأرزاق وتقله إلى وحدته. ولايدري لماذا هتف محدثاً الصبي:

– لقد تأخروا كثيراً.

والصبي الذي ربما لاحظ ارتباك علي، سأله:

– أين وحدتك.

فأجابه علي بصورة أوتوماتيكية، وكأن شخصاً آخر يجيب عنه:

– في الفاو.

هز الصبي، دون إعلان أية مفأجاة. وكأنه يعرف المكان بدقة.

ازداد فضول علي فسأله بحذر:

– هل تعرف الفاو؟

هز الصبي رأسه بـــ «لا». ثم أضاف:

– علي كان يحدثني دائماً عن الفاو. كانت وحدتهم على ما أعتقد هناك.

فسأله علي مقاطعاً:

– أين وحدتهم هذه الأيام؟

حدق الصبي فيه. وظلت نظراتهما هكذا معلقتين الواحدة بالأخرى.

وللمرة الأولى يرى علي خوفاً في عيني الطفل. ترى مالذي يخافه. هذه المرة لايدري لماذا لم يتردد في سؤاله:

– هل تخاف؟

وبثقة رجل كبير أجابه الصبي:

– أخاف أن تقول لي لا.

ودون انتظار تعليقه بدأ الصبي الحديث وفي حماس:

– الكل يقولون إنهم لايعرفون، غير صحيح. لماذا الكذب، أين علي، كان في الفاو .. و .. لا أدري.

وعلي الذي لم يزدد اضطرابه فقط، إنما فضوله أيضاً، وكأنه يريد الانتهاء من هذه القصة وبسرعة، عاين ساعته ثم الساحة ليس باضطراب فقط، وإنما بخوف، خوف ازداد عند لمح ظلمة خفيفة بدأت تغزو الساحة ببطء، فيما بدأ الصعيديون ومنذ وقت ليس بقليل بمغادرة الساحة تاركين هذه المرة فقط الجنود الراحلين مع قوافلهم والجنود القادمين في إجازاتهم. «ترى متى يأتون، لماذا تأخروا كثيراً هذه المرة» هتف في داخله بخوف. وللحظة جاءه صوت الصبي:

– تعرف أخي علي؟

ظل علي محافظاً على صمته، فيما كان قد ترك بيريته تستقر فوق المنضدة، فيما ازداد حماس الصبي بشكل عجيب، وراح يلقي بجمله وكأنه لم يستطع التحدث منذ زمن طويل، أو كأنه فقد صبره، دون أن يخلو صوته من انسكار يائس أشاع الخوف في علي.

– أنت مثلهم. تقول لا تعرفه، كلكم كذابون، أنت في الفاو.

ولاتعرفه. إنه في الفاو. هذه المرة مفقود. كيف لاتعرفه، لايمكن.

لم يجد علي الوقت الكافي لتهدئته، إذ نهض الصبي في مكانه فجأة، وانخرط في بكاء حاد، لايدري ما الذي جعله يبقى منغرساً في مكانه، وكأنه قد شل منذ زمن طويل، لم يستطيع فعل أية حركة تمنع الصبي من أن يندفع وبقوة خارج المقهى دون التوقف عن بكائه وترديده.

– كذبوان. كلكم كذابون. أين أخي؟.

لبرهة بقي علي في مكانه دونما حراك. لم ينتبه في البداية إلي صاحب المقهي الذي أتى عنده ليحمل فنجان الشاي الفارغ والذي قال له:

– لا تهتم إنه طفل مجنون، الكل يعرفه. يأتي كل يوم إلى هنا يسأل عن أخيه المفقود. مجنون، طفل، مجنون لاغير.

ولايدري علي لماذا انتفض فجأة، انتفض بفزع وأصبح بسرعة عجيبة خارج المقهى، ماسكاً بيرته وكيس النايلون بقوة، فيما لم تبحث عيناه عن سيارة الأرزاق التي وصلت الساحة الآن، والتي جعله بوقها ينتفض، إنما يتجه وبسرعة إلي أحد الأزقة المجاورة مصراً على إيجاد الصبي هذا المساء وبحماس كبير.

مدريد تشرين أول ١٩٨٨

❖

الرقصة الأولى

إلى «ملهم» طبعاً، الذي مازال أسيراً

غالباً عندما تتوقف المدافع عن إطلاقها، وتنتهي تلك الضجة التي تحدثها قاذفات القنابل، حيث يسري هدوء يشبه السلام، يشمل خطوط الجبهة ويلفنا معه، نقطع نومنا القصير أنا والملازم «ملهم». إذ اعتاد هو في تلك اللحظة على إخراج قنينة العرق من دولاب العتاد الذي وضعناه في فتحة حفرناها في جدار موضعنا والذي أطبقنا عليه «خزانة الخمور» كان يسحب الزجاجة بخفة وهدوء كأنه يخاف إيقاظ الجبهة. ماإن أسمع حقيقةحتى أستيقظ، فأراه واقفاً مقلّباً الزجاجة في يده كلقطةٍ ثمينة. أبتسم وأتحرك في اتجاه صندوق عتاد آخر صنعنا منه مائدة، ثم أخرج من حقيبتي العسكرية منشفة نظيفة لأفرشها فوق الصندوق. يضع ملازم «ملهم» الزجاجة فوق الصندوق– المائدة ويتجه إلى الخزانة ليخرج منها قدحين صغيرين، يمسحهما من الغبار بقطعة قماشٍ احتفظ بها لهذا الغرض، ليجلس بعدها مواجهاً لي، بيننا السائل الذي يصرُّ على بعث الحياة فينا.

لم يكن الحصول على الخمر سهلاً، فبطرق مبهمة وملتوية كان يطوف أحد نواب ضباط الرعاشة الشباب الذي لانعرف حتى اسمه، على المواقع وفي جعبته قناني العرق. والملابس الداخلية. وبعض المعلبات. يأتي بصورة متقطعة إلى ثقبنا الذي كنا نعيش فيه منذ أسابيع طويلة نقاتل القذارة والحزن واليأس، ولا يغادر قبرنا إلا ويكون قد ارتاح للمقايضة التي يقترحها. نادراً ماكان الاتفاق يرضي الطرفين. لكننا كنا على استعداد لدفع كل مانملكه من أجل تلك القطرات المجنونة التي عند شربها تكف الجبهة عن الوجود أمامنا.

– بصحتك.

يقول لي ملازم ملهم. أرْفع الكأس وأضربه بكأسه. نحتسي القدح الأول بكاملة. نسترخي. فيمد ملازم ملهم ساقيه حتى يصلا فتحة الموضع،

فيغطيها ببطانية.

– يجب ألا يظن رفيقنا في الجبهة المقابلة أن «بسطالي» رأساً. نضحك. وغالباً مايكون المساء قد بدأ يغطي الجبهة بكاملها. منذ دخول الخمر حياتنا، تغير إيقاع علاقتنا. لم نعد ضابطاً وجنديا، حتى بدا لي انه استثناء جميل، فلقد كنت أعرف الضباط وغرورهم.

من طرفه بدأ ملازم ملهم يفتح دواخله لي.

– آه لو أستطيع الحديث عن كل زوايا القلب المعتمة.

لم نتحدث عن حياتنا الحاضرة يوماً، وهل هناك حياة حاضره لجنود كل ما يتمنونه هو انتهاء هذه الحرب أو عساها لو لم تكن قد حدثت. لم نتحدث عن الحرب وكأننا كنا متفقين على تقييمها، وأيضاً من المنطقي أننا لم نتحدث عن المستقبل، فأي مستقبل نملكه في ذلك الجحر، يواجهنا في الطرف الآخر جنود لا أدري إذا ما اختفوا هم أيضاً في جحورهم، أي مستقبل هذا الذى تقرره إطلاقة واحدة، سيان من أية جهة تأتي. كنا نتحدث عن الماضي، عن بيوتنا هناك، عن الأم والأخوات، عن الأطفال والشارع، عن المقاهي والبارات. عن كل ما يطلق عليه «الحياة». ولكن لقول الحقيقة كان ملازم ملهم يتحدث أكثر منّي.

– تخيل . ذلك المقهي ...

يُرخي ساقيه أكثر، يخرج سيجارة، لا يُقدم لي واحدة لمعرفته أنني لا أُدخن، أمر لم يفهمه. كنت أقول له: يكفيني دخان المدافع.

– مقهي جميل تخيله. ليس ككل المقاهي. كلا مقهي من نوع خاص.

ينفث دخان سيجارته

– الكراسي موزعة فوق الحشيش. تحيطها شجيرات الياس والجوري. يغلق عينيه. يصمت – ويصمت:

– عند العصر. تخيل. تشم رائحة الشاي والقهوة. تجلس هناك، تأتيك أصوات الطلبة العائد من الدوام تواً. ربما تسمع شذرات بسيطة من أحاديثهم لأنك مشغول بترجمة «بايرون». آه كم تسحرني « قصائده فجأة نسمع صوت دوي. لكنه لا يحدث سوى مرة واحدة.

– يطلقون عليه «السنتر البريطاني» هل تعرف فهو الحديقة الخلفية في الملحقية الثقافية البريطانية.

يقذف السيجارة من يده.

– هناك عند الطرف الآخر ربما تلمح إحداهن تنظر إليك. تبتسم. تبتسم لها. ثم عند حلول المساء، ضيفنا العزيز على القلب، تنهض، وتنهض أنت خلفها، تراها تقطع الطريق المشجر. تجري خلفها. مازالت الابتسامة تلمع أمامك. إنك لا تنسى هذه الابتسامة. ثق لايمكن أن تنساها. ربما ستكون كلمة السر في الحياة الأخرى.

كنت أرى في عينيه شيئاً يشبه ما يكون في عيون الأطفال. التماع ليس خفياً. إنما يعلن عن ألم سري ينظر إليّ بصداقة، فأنظر إليه بنفس الودّ حينها يشعل سيجارة جديدة.

– ليس هناك أحلى من طعم البتع المخلوط بـ أرومة الأنيس. ولبرهة ينبعث صوت القذائف. لم نعرف من أين تأتي، بينما يهجم علينا مرة اخرى خوف مفاجيء من هجوم غير متوقع أو إنزال سيحدث.

ربما لم يقلقنا الموت لأننا اعتدنا روية وجهه في أكثر من مكان، ربما هو خوفنا من انتهاء أمسية شربنا اللذيذة، ماكان يخيفنا. حينها نبدأ في الشرب كأنها القطرات الأخيرة التي سنحصل عليها، نتبادل الحديث بسرعة وبصوت مرتعش، بينما يمتزج فى عيوننا ما يشبه الرغبة والغضب.... وعندما ينظر ملهم إلى قعر القنينة التي ربما تحوي قطراتها الأخيرة، تبدأ نظراته ببث حزن عميق، فيأتيني صوته ضعيفاً، منكسراً، كأنه يهمس في أذني: الفتاة. هل تعرف كانت تجلس أمامها كتاب للوركا. هي الأخرى تترجم قصائد (للوركا ... بعدها تنهض، تخرج إلى الشارع المشجر، وتنتهي عند تقاطع الشارع مع شوارع أخرى، عند مفرق «دارينا» .. الفتاة ... هل تعرف في رأس السنة الماضية، جاءت الفتاة ....

كانت تلك الفتاة بالنسبة لي لكي أطلب منه أن يصمت

– أرجوك لا تتحدث أكثر.

كان هو الذي قال لي عندما أبدأ في الحديث عن الفتاة وحفلة رأس السنة. أرجوك اطلب مني أن أسكت.»

ولكن كما طالبته بالكف عن الحديث، حتى كنت أرى حجم المرارة التي تهجم عليه. فيبدأ حينها بالغناء: اتنطرونا كثيراً

ع مفرق «دارينا»

لكن المساء الذي أريد حكايته، كان مساءً يختلف عن باقي الأساسي الأخرى. كنا قد حصلنا ذلك المساء على قنينة من «عرق المسيح»، النادر الوجود وآنذاك الذي كلفنا مبلغاً مضاعفاً، واشترينا أيضاً من نائب الضابط بعضاً من الملابس الداخلية والكرزات. وبحماس جميل استبدلنا ملابسنا ذلك اليوم. حلقنا ذقننا، رششنا بعضاً من كولونيا «التاباك» التي كان ملازم

ملهم يفتخر بمواظبته على وصفها رغم الحرب والقذارة التي تحملها القذائف معها.

كنا قد انتهينا من روتين إخراج القنينة ووضع الأقداح. كان المساء قد هبط كملاك فوقنا، فرحنا به. لقد كان المساء لذتنا. كنا نعتقد أن النهار لم يخلق إلا من أجل الإعداد لقدوم المساء. على أى حال ذلك المساء خيم حمتا رهيب إذ كانت الجبهة وبصورة غريبة قد توقفت عن عملها طوال النهار. حتى الحمائم كانت تحلق بحرية ذلك اليوم. هل تعرفون؟ يمكن أن يعتاد المرء على الصمت في الأوقات الطبيعية، إلا أن هناك وبعد خبرة ومران طويليين مع الصمت، مايجعل المرء يشك أن ثمة صفيرا سرياً ينبعث منه. الصمت ذاته، يدخل الأذن، يفتح ممرات خاصة، يحمل معه النذير، تسمعه الأذن، يتغلغل في مسامات الجلد بعمق، فيبدأ كدبيب النمل في القلب، فتبدأ دقات القلب بالإسراع، لعل الضربات لا تبدأ في الخفقان، بَلْ يخيل إليك أنها تسرع لأنك لم تصغ إلى نبضك في أيام اخرى، وعندما يبدأ القلب بتغيير إيقاعه يتغير إيقاع الأشياء من حولك لنقل إيقاع جسدك يبدأ بالتغيير حتى تشعر بأن يديك ، أرجلك، وأي جزء آخر من جسمك لم يعد لهم وجود إنهم يطيرون هل تعرفون؟ حينها يستحوذ عليك رعب، رعب يزيد من اضطرابك في الأول، وفي لحظة ما، تشبه تلك اللحظة التي يمشي فيها لاعب السيرك على حبل رفيع، بدل أن يسقط في المنتصف، يجري بسرعة ليكون عند الطرف الآخر، حينها تنتفض بيقظة. يمكن تخيل حالنا ذلك المساء بهذا الشكل، إذ فجأة وكأننا انتبهنا لما يدور، انتفضت فجأة كأننا نغادر غيبوبة طويلة محاولين المواصلة غير مكترثين للصمت المريب.

– بصحة الرفيق الذي يصرّ على إصابة الهدف في الجهة الأخرى.

رفعت كأسي ضاحكاً

– نعم بصحته، آمل أن تكون عنده نفس المباركة.

– «المُسيِّح» اكتشاف عراقي خاص لاوجود له مثيل.

ضحك «ملازم ملهم» حتى دمعت عيناه. أخرج سيجارة، دفع لي بواحدة. لم أردّه. لا أدري لماذا فعلت ذلك كأن اتفاقاً ضمنياً تم بيننا.

فجأة سألني ملازم ملهم:

– تحدث أنت. لم تتحدث عن حياتك الكثير.

أجبته:

– لم تكن لي الحياة التي عندك. إنني أصغر شيئاً. لم أدرس في الجامعة مثلك. ربما لسوء حظي دخلت إعدادية الزراعة.

سكتُّ فرأيته ينظر إليّ منتظراً:

– أما الذي يحب الشعر يدرس الزراعة. ربما العزاء الوحيد هو رومانسية الحقول.

ضحك لجملتي:

– ألم تتعرف على فتاة؟

فأجبته بسرعة:

– في الحلم فقط.

وسكت. لم أكذب عليه. قد أكون أخفيت عليه أمري وتحدثت عن طوابير العاشقات المتيمات كما يفعل الكثيرون في مثل سني، لو لم

تساعدني أقداح العرق على قول الحقيقة.

ضحك

– لم تقبل فتاة في حياتك؟

كنت أحمرّ من الخجل.

واصل هذه المرة تعمير الأقداح بسرعة. لم يشأ رؤيتها فارغة.

– لا أصدقك.

جملته جعلتني أخجل أكثر. صمتنا. نظر «ملازم ملهم» حواليه نظرات حزينة وفجأة رفع القنينة التي لم يبق في قعرها إلاّ قطرات قليلة ليضعها على حافة الموضع

– الرفيق في الجهة الأخرى الذي يصر على إصابة هدفه، عليه الحصول على شيء منها ولبرهة سمعنا أزيز طلقة ثم تناثر القسم العلوي من الزجاجة.

لم نعلق بأية كلمة. حدقت في الملازم ملهم فرأيت الخوف يهجم عليه. لقد تغير لون وجهه وأصبح شاحباً. شعرت أنا الآخر بالخوف.

– البنت، هل تعرف البنت.

لم أمتلك الشجاعة الكافية ذلك المساء لمنعه من تكملة الحديث عنها.

– هل تعرف البنت، لقد حدثتك عنها، عند مفرق «دارينا» وعن حفلة رأس السنة في بيتنا.

صمت قليلاً، كأنه يمنحني الفرصة لمقاطعته. لم أقاطعه. لم أقل له إنه

لم يحدثني عنها أبداً، إنما كنت دائماً أقاطعه. واظبت على التدخين مخدراً للمرة الاولى بطعم التبغ الجميل الممزوج مع الأنيش.

– البنت تسكن في نهاية الشارع المشجر. عند مفرق «دارينا». في الإجازة الأخيرة ذهبت إلى هناك. كان الخريف. آه لو أستطيع وصف الشارع. كان الشارع مليئا بأوراق الأشجار الذهبية.

سكت كي يعب قدحاً آخر ويشعل سيجارة جديدة.

– من مكان ما يأتي صوت فيروز: «ياريت مديت ادي وأخذتك مني ياريت».

يصمت ثم:

– كلا لم تكن ذهبية. أقصد الأوراق. لونها يأخذ من الذهب شيئاً ومن حمرة المساء، المساء، الأفول. أو ...

يخرج قطعة من التبغ استقرت عند لسانه.

– أوراق الشجر تشبه شعرها. آه شعرها الطويل الذي فتحته عند فعلة رأس السنة. هل تعرف كانت تجلس في مقهى السنتر البريطاني وحيدة. لم يصاحبها أحد غير «لوركا». أرى كتاب لوركا على المنضدة عندما أمرق. أمامها. كانت تخرج إلى الشارع المشجر. أجرُّ أذيالي خلفها. تصاحبني ابتسامتها. لايمكن أن تنسى تلك الابتسامة. ستصاحبك طوال حياتك. كيف لي أن أنساها؟ شعرها الطويل، تلتف راقصة في حفلة رأس السنة، في بيتنا. هل تعرف البنت ...؟

لم أقاطعه أنا هذه المرة، إنما صوت الإطلاقة التي أتت على بقية الزجاجة، على قعرها، ومرت من فوق انحدار الموضع. مرة أخرى شعرنا

بخوف يمكن رؤيته فوق وجوهنا بسهولة. رأيت «ملهم ينهض.

– الفتاة تأتي إلى حفلة رأس السنة. هل تعرف كل سنة أعمل حفلة في بيتنا. هل تعرف بعد الثانية أو الثالثة ليلاً يخمد الجميع. ليس هناك حماس حينها تأتي مجموعة من الشابات والشباب المسيحيين أغلبهم، يأتون عادة في «كمب الأرض» يطوفون على البيوت المختلفة. يبعثون الحياة إلى المحتفلين. هل تعرف. البنت التي تسكن الشارع المشجر. كانت هناك معهم في المرة الأخيرة فوق سيارة «البيك – أب». تنزل من السيارة. شعرها الأشقر المفتوح. تدخل البيت. أحاول الوصول إليها. لكنها وسط دائرة شلتها. تنظر إليّ. تبتسم. كيف لي أن أنسى ابتسامتها؟ ستصاحبني مدى الحياة؟

كان الليل قَد حلّ ولولا السيجارة التي كان يدخنها لما رأيت قامته التي تحدّبت عند ظهره، ولاكتفيت بسمع صوت بكائه.

– هل تعرف؟

لم ينظر إليّ. إنما نظر صوب الجبهة، صوب الجهة المقابلة، حيث البستان المعتم الممتد في مواجهتنا. ثم بدأ بتحريك قدميه ببطء، فيما أخذ صوته يبتعد عني تدريجياً.

– لم يبقوا طويلاً. داروا دورتين وذهبوا، وهي أيضاً دارت هكذا رأيته يدور أكثر من دورتين

– ثم اختفت مع الشلة. خرجت وراءها.

توقف عَن الدوران. شعرت بابتعاد صوته

– في الإجازة الأخيرة ذهبت إلى الشارع المشجر. إلى السنتر

البريطاني. كان يوماً خريفياً كهذا اليوم. الأوراق ذهبية. كلا ليست ذهبية تماماً. زائداً أنني لم أسمع صوت فيروز. هل تعرف البنت لم تكن هناك؟ اختفت، مثلما اختفت ليلة رأس السنة. كانت ترقص، تدور. خصرها الجميل شعرها المحلول. كيف أصنعها؟

حاولت مناداته إلا أن صوتي تجمد.

– أوراق الشجر استعارت لون شعرها، أو لون الأشجار التي تلمع تحت إطلاقات رفيقنا هناك.

أخرجت جذعي من الموقع أكثر. رأيته يؤشر باتجاه البستان

– الفتاة تسير، وأنا أسير. تلتف وأنا ألتف. ترقص. وأنا أرقص. هكذا كما يحدث دائماً تختفي عند مفرق «دارينا». نعم الفتاة تختفي وأنا أختفي أيضاً.

صرخت به فجأة:

– ملهم ارجع.

حينها مرت طلقة واحدة. تبعتها أخرى وأخرى، ثم جاءت واحدة وأزّت أزيزاً عالياً، وملهم يسير وفي يده زجاجة العرق الثانية التي أخذها خفية معه. كان قد فتح سدادتها وراح يشرب منها مباشرة.

– اجري خلفها في الشارع المشجر، عيناها الخضراوان. أين أنت لوركا، خضراء، خضراء أحبك خضراء.

تمرق طلقة أخرى أسمعه يضحك ويتجه إلى الموضع. أخرج تجاهه وأسحبه معي بسرعة. تئز طلقة أخرى، ومثل نيازك أرى تناثر الإطلاقات. نسيت خوفي وسحبته الى الموضع.

عندما أصبحنا في الموضع تنفست بقوة

– بصحتك.

ضرب عنق الزجاجة بقدمي. سحب السيجارة. وضعها على طرف المنحدر. حاول أن يمد حلق القنينة إلى فمه. لم يقدر، رأيته ينحدر الى الأسفل تدريجياً، فيما راح يحتضن الزجاجة. لم أشأ النظر إليه في البداية لخوفي، حاولت سحب قنينة العرق من يده، فقد كانت سائلة تماماً، حتى أن العرق بدأ يسيح منها على الأرض– وهناك مع العرق السائح – المسيحُ رأيت خيطاً من الدم، دم داكن اللون يسيل عند بنطاله . رفعت نظراتي إلى الأعلى فرأيت الخيط يبدأ عند زاوية القميص اليسرى. صرخت لعل أحد، يسمعني في احد المواضع القريبة.

لم أسمع أي صوت. كنت وحيداً مع ملازم ملهم، مع الليل، مع العرق والدم السائحين، مع خوفي.

توقفت الإطلاقات. خيم صمت مريب على المكان مرة أخرى، يقطعه بين الحين والآخر رنين، شخير مؤلم يأتي من مكان ما.

لبرهة حركت قدميّ للخروج من الموضع. وعندما أصبحت على طرف المنحدر جاءتني ضربة مفاجئة في الظهر، جعلتي أسقط على صدر ملهم مباشرة. ولمرة واحدة بدأت أسمع ضجيج الأسلحة وقعقعاتها من أماكن مختلفة، فيما انتشر فوق الموضع .ضوء «البروجيكترات الكاشفة ممتزجاً مع عياط في لغات مختلفة، لم أستطع تمييزها. لم يدم الأمر طويلاً، بل بدأ يهدأ تدريجياً، ومع دم ملازم ملهم الداكن الذي كان يصل بنطالي، اختلط دم فاتح اللون، أحسست حرارته ملتصقة بمساماتي، ينحدر مع انحداري إلى الأسفل، حتى وجدت نفسي ضاحكاً وسط حفلة رقص صاخبة لم يستطع «ملازم ملهم» وصفها، وبعدها كنت أجلس عند طرف الغرفة، فيما نسجت الوحدة والخراب شباكها بين الأضواء الساقطة، حيث

رأيت فى البعيد، البعيد غير المعروف، بنتاً محلولة الشعر، خصرها نحيف، خضراء العينين ترقص بحماس، تبتسم لي، تمد يدها تدعوني إلى الرقص تدور دورتين، فأدور معها وتختفي.

المدينة التي اسمها العمارة

من بين الدخان الذي أحاط الجالسين، يستطيع علي أن يتبين حركات وجه نائب الضابط الفرحة والذي غادرهم لحظات ليجلس عند مكان قريب لمدخل البار. لقد تفحصه بدقة، كيف أنه قلب الساعتين اللتين اشتراهما من زميليه، وكيف وضعهما في جيب سترته وهو يطلق ضحكة عالية استفزته، ولكن أياً كان غضبه، فإنه ليس من الجرأة بحيث ينهض من مكانه ويذهب إليه ليصفعه أو يبصق عليه. إن مجرد ورود هذه الفكرة في ذهنه تجعل جسده يتقلص وأسنانه تصطك قليلاً. حتى العرق لم يمكنه من إطفاء خوفه الذي يشيح بصره عن نائب الضابط عندما لاحظ أنه قد نظر إليه هو الآخر مستفزاً.

تناول عليّ قدحه وأتى على جرعة كبيرة منه، ثم أخذ يحدق بزميليه اللذين بدوا له فرحين لما حصلا عليه من العرق مقابل الساعتين. صحيح أنهما كانا يستطيعان دفع حساب ربعي العرق الأولين اللذين شرباهم، إلا أنهما لم يملكا النقود لكي يشربا كمية أخرى.

من مكانه يستطيع علي أن يرى وجهيهما بدقة واللذين غادرا فرحهما بسرعة وبدءا يتشنجان وكأنهما تذكرا أمراً مهماً. لقد أفادته خطوط وجهيهما الثلاثينية والتي بدت محفورة بعمق وكأنها منحوتة منذ زمن طويل، ولم ينفعهما أن يحاولا بين الفينة والأخرى ألا يظهر اضطرابهما. لقد كان واضحاً كيف أنهما مع الوقت يزدادان نهماً في شرب العرق، ثم ينظران إلى حواليهما بتوجس وريبة كأنهما يهجسان أمراً محيفاً.

لقد بدا حماسهما المفرط في الشرب غريباً لعلي، صحيح أنه هو الآخر كان يشرب بنهم إلا أنهما فاقاه. لقد أتى الاثنان على أكثر من نصف لتر من العرق. فيما لا يزال وفي قدحه الثالث لم يكمل ربع العرق، إلا لأنه لم يتذوق الزحلاوي، إنما لأنه، وللمرة الأولى كان يشرب بشهية.

كان كمن يريد أن يتذوق هذه القطرات، وكأنه على دراية بأنه سيفقدها إلى الأبد. لذلك فإنه عندما كان يشرب كان يدفع في الأول القدح الى فمه، ثم يحرك السائل بين أسنانه وكأنه يتمضمض به ليدفعه بعدها بروية. ضحك علي في داخله عندما فكر أن كلاً منهما يعيش الوضع على طريقته. ربما كانا يشربان بهذا النهم لأنهما يفكران بأنهما لن يحصلا على العرق مرة أخرى أبداً. من يدري؟ وإذا كانا في بادئ الأمر لا يملكان نقوداً كثيرة فإن الأمر قد اختلف بعد أن اشترى نائب الضابط ساعتيهما. ترى كم من الساعات والأشياء الأخرى الثمينة اشترى نائب الضابط هذا. وفكر علي فيما إذا كان الرجل يجلس كل ليلة هنا يصطاد الجنود العابرين، إذ من السهولة عليه، طالما أنه –كما ادعى– يشتغل في دائرة تجنيد العمارة، أن يعرف الوحدات المنتقلة إلى الجبهة كل يوم، وبحس المحترف يستطيع أن يميز الجنود الذين يتسللون إلى هذه الحانة ليلاً، يميزهم من رؤوسهم الحليقة أو من قسماتهم المتعبة، أو من نظراتهم الخائفة المتوجسة والمتوثبة لكل مفاجئة طارئة قادمة من زوايا الحانة المكتظة.

«سفلة» تمتم علي مع نفسه وسحب علبة سجائره، دفع بها إلى زميليه اللذين سحبا سجارتين. لم ينظر علي إلى أصابعهما التي ارتجفت قليلاً، إنما نظر إلى وجهيهما اللذين بدوا منكسرين وحزينين. وعندما أرجع علي العلبة إلى المائدة، تخيل الوجهين تحت الحطام، متهشمين، مجرد عظام في مكان ما على الجبهة. وعندما أشعل لهما السجارتين تفحصهما بعمق وكأنه يريد أن يحتفظ بقسماتهما في ذهنه. ولبرهة أشعل سيجارته هو الآخر، ثم فكر، ترى ما الذي سيحل به؟ هل سيكون مجرد جمجمة؟ لقد طعنته تلك الفكرة فقال لنفسه:

– لاأريد أن أموت.

وتساءل أيضاً مع نفسه، ترى هل يفكر وحده بالأمر، أم هما الآخران يفعلان؟، إذا كان غير ذلك. فكيف يفسر صمتهما؟ لقد جلسا هما الآخران مشدودين إلى صمت رهيب، لم تتحرك فيه سوى رؤوسهما بتوجس. ولم يتبادلا معه سوى جمل مقتضبة عند دخولهما البار. صحيح أنهما اتفقا ألا يتكلما بالأمور العسكرية إلا أنهما يبالغان. ألم ينسيا خوفهما للحظات عندما ساومهما نائب الضابط على ساعتيهما، والذى استفزهما بقوله:

– سترحلان غداً إلى الجبهة لمقاتلة العدو.

كم بدا نائب الضابط لعلي مقيتاً. حتى ولم تكن ساعته هدية من خطيبته التي يعتقد أنه لن يراها بعد اليوم. فإنه لم يبعها له، لأنه يعرف أن هذا الرجل سيبيعها بسعر أغلى والذي بدا منافقاً في جملته، عندما قال لهم:

– أريد مساعدتكم.

بدأت تنبعث من زوايا البار أغان مختلفة. بدت تلك القطعة التي علقت على جدران البار «ممنوع الغناء» قميئة وغير ذات معنى. سرت فيه هو الآخر رغبة في الغناء إلا أنه كتمها على مضض.

وفجأة صاح به الاثنان:

– علي بروح أجدادك غن بطورك الصبيّ.

ابتسم لهما. سحب نفساً عميقاً من سيجارته ثم رماها ليدوسها بقدمه.

كانت نعيمة هي الأخرى تطلب منه الغناء إذا ما أصبحا عند نهاية شارع أبي نواس في نزهتهما، وهناك كان يتردد أيضاً في الغناء، ولكن لوجله، أما الآن فإن الأمر يختلف، إذ هناك ما يلجم لسانه ويجعله يرتد

كصمام، فلا يقوى على فتح فمه. لم يكن الخوف فقط، إنما شيء أبعد من ذلك. لقد كان يشعر بأن كل ما سيغنيه يثير الريبة.

وإذ لمح علي إصرارهما همس لهما:

– أرجوكما.

ابتسم الاثنان له، دفعا قدحيهما إلى فمهما، ثم رميا السيجارتين تحت أقدامهما. دفع بقايا كأسه إلى جوفه، ليستقر بعدها فارغاً فوق المائدة. ومرة أخرى بدأ يفكر، ترى هل يعلمان ماذا سيحل بهما غداً؟ لقد كان يعرفهما منذ زمن، منذ مجيئه إلى الوحدة في معسكر التاجي. وكان يعرف أن الاثنين متزوجان ولهما أطفال كثيرون ولكن الغريب أنهما لم يتحدثا معه حول أمورهما الشخصية هذا اليوم. هل لأنهما جنديان متطوعان؟ هل اعتادا على هذه الأمور؟ ألا يعرفان أن هذه الحرب تختلف عن باقي الحروب؟ لقد تحدثا معه في الطريق إلى البار عن المدينة «الشروكية» كما يسميان العمارة، وقالا:

– هل تعرف أن أجمل شيء في هذه المدينة، هو أن عدد البارات فيها يفوق عدد الجوامع.

وهو لم يحب العمارة لهذا السبب. لم يثره منظر القوافل العسكرية التي اكتظت المدينة بها. ولا انتشار رجال الانضباط العسكري، صحيح أنهم أزعجوه بوجودهم، إلا أنه كان ينظر إلى المدينة وكأنها خالية منهم. لقد أحب مدن الجنوب منذ زمن طويل، لقد سمع عن العمارة الكثير من زملاء دراسته، إلا أنه يتذكر الآن كيف أن قلبه خفق عندما وصلوا مدخل اليوم. لقد أحب المدينة كما يحب امرأة من أول نظرة. ويبقى السؤال لماذا وكيف زائداً عن الحاجة؟ ألم يجعله حبه للمدينة أن يقنع الآخرين بالتسلل

من حامية الجيش هذه الليلة والقدوم إلى هذه الحانة؟

لو لم يصحْ به الاثنان:

– كم هي الساعة الآن؟

لاستمر علي في حديثه الداخلي، وببطء عاين ساعته لتنفتح عيناه بسعتهما وليقول بصوت قلق:

– الحادية عشرة والنصف، يجب أن ننهض.

ضحك الاثنان و قالا:

– على مهلك.

جرعا ماتبقى من قدحيهما، ثم أشارا له بالنهوض. وضع أحدهما نصف لتر من العرق استقر فوق المائدة تحت سترته. ثم أشار لعامل البار بأن حسابهما مدفوع.

وإذ أصبحوا عند الشارع، اختفت ضجة البار من رؤوسهم. ولم يسمعوا بعدها سوى تردد خفقات أقدامهم المرتطمة بالأسفلت، وبين لحظة وأخرى يلمحون شخصاً يمر بهم، أضافت عتمة المدينة عليهم شعوراً مكثفاً بالتوجس، فراحوا يسرعون في سيرهم، حتى أن علي عندما ألقى بجملة استفزازية على وجه النكتة:

– من لم يمت بالسيف مات بغيره.

بدت غير مسموعة للآخرين اللذين انشغلا بالنظر إلى كل زاوية من الطرقات وكأنهما يتوقعان ظهور رجل انضباط عسكري أو مخبر.

كانوا يسيرون بسرعة مذهلة، أيديهم في جيوبهم، وكأن برداً شديداً

يلسعهم، وفوقهم ارتفعت النجوم في السماء وتدلت كعناقيد فضية، فظهرت سطوح البيوت وواجهات الدكاكين جلية رغم العتمة الكثيفة.

ولبرهة وقفوا قليلاً ليحدق أحدهما بالآخر. ضحكوا، ثم ليصمتوا. بعد أن ضرب أحدهم على كتف الآخر. وليسيروا بعدها جارين ليس خطواتهم فقط إنما صمت المدينة كلها معهم. ظلوا محافظين على سيرهم السريع، حتى أصبحوا عند نهر الكحلاء ... كان النهر هادئاً وبدا سطحه لعلي مستقراً باستفزاز، محتضناً ضوء النجوم الذي استقر هناك طيعاً، وكأنه موجود منذ القدم. وعند السياج المحيط بالنهر وقفوا. وبدوا، أول الأمر وكأنهم لايودون التحرك من مكانهم. أو هكذا ظهروا لعلي على الأقل، الذي فكر لبرهة، ماذا لو كفت الأرض الآن عن دورانها، واستقرت عند هذا المكان، حيث تقف أقدامهم؟ فكر أنها مجرد هلوسات لسكران، سكران سيتقرر مصيره عند الضفة الأخرى من النهر، حيث جثمت ملابسهم العسكرية التي أخفوها هناك، وحيث الحامية العسكرية. هناك عند الضفة الأخرى سيبدأ الحطام الذي تخيله في البار. هل هي هلوسة أخرى؟ وإذ حاول أن يسألهما فيما إذا يفكران مثله، كان الاثنان قد غادرا المكان، ونزلا إلى ساحل النهر بعد أن قفزا فوق السياج. اندفع هو الآخر بآلية من مكانه. وعندما رآهما ينزعان ملابسهما المدنية، بدأ هو الآخر ينضو عنه ملابسه. وفجأة توقف، ظل واقفاً وهو يمسك قميصه بين يديه، يتابعهما بعينيه. ومن مكانه استطاع أن يراهما، كيف أنهما اندفعا إلى النهر وقد صاحا به:

– علي .. انزل.

لم يجبهما، إنما ظل واقفاً في مكانه ينظر إلى الجسدين المتحركين كنقطتي ضوء. ومع تلجلج النجوم على سطح الماء انداحت يداهما وهي

تزيح انعكاسات النجوم التي بدأت تضطرب فوق الماء. وبسرعة مذهلة أصبحا عند الضفة الأخرى من النهر، وفي تلك اللحظة بالذات تحرك علي من مكانه ليجلس عند حجر قريب، وأخذ يصغي إلى خفقات خفيفة للماء تشبه خفقات قلبه الذي شرع يضرب بهدوء. وفكر بأن الآخرين يريان العمارة للمرة الأخيرة.

هامبورغ

يوم توقفت الحرب

كان يجران خطواتهما بتعب، وكزنهما يسيران منذ زمن طويل، عندما توقف فجأة أحدهما. كان في عينيه يلتمع ما يشبه الألم. في عينيه بالذات، اللتين كانتا سوداوين محجراهما اللذان كانا أسودين أيضاً. استرد أنفاسه لبرهة، ثم بدأ في الكلام بصوت جاف ومرتجف.

– هه. لا استطيع التحمل بعد. أن يكون الفلاحون بهذه الجلافة! هل كنت تتصورهم على هذه الشاكلة؟

كان يسعل، وكان وجهه عريضاً، مليئاً بالتجاعيد، رغم أنه لم يتعد الثلاثين، فيما كانت عيناه ماتزالان تدوران في محجريهما الأسودين. أما الوجه، الفم، الأنف وحتى العيون فقد بدوا وسخين، دهنيين. ولكن بالرغم من كل ذلك فإن لون وجهه ظل محافظاً على بياضه الأصلي. كجبن. لقد بدا هكذا.

– آخ هؤلاء الفلاحون .. الكلاب، ولكن رغم ذلك بعض من البطاطا. قال الآخر. ثم ضحك بمرارة ولبرهة قصيرة. كان صوته جافاً، مراً. لقد كان هو الآخر بنفس السن. يحمل كيساً صغيراً على ظهره. ظهرت عند عينه اليسرى ندبة عريضة وبالذات فوق الجبهة التي كانت وسخة جداً، قذرة، دهنية. كما هو جسده كله، أو كما هو الآخر بالذات. عندما كان يضحك كانت خصلات شعره الدبقة تقع على ذقنه. لقد كانت شقراء في الحقيقة، لكن لا يستطيع المرء رؤية لونها لوساختها. كان يزيحها بيديه، بعد كل ضحكة.

– ربما سنحصل على شيء!

ثال الأول. أما الذي كان عنده ندبة فقد اخذ يهز رأسه. ثم ليواصلا السير بعدها. كانا يرتديان ملابس عسكرية متهرئة وكان منظرهما يبدو

بائساً جداً، بلا لون، بلا طعم، رمادياً، قذراً، دهنياً. وغالبا ماكانا يذهبان إلى البيوت يميناً ويساراً. للبيوت التي يعتقدون انها غنية أو للبيوت التي يعتقدون أنها فقيرة، أو هكذا ما كان يتضح من خلال حديثهما. ولكن كلما خرجا من هناك، كانا بلا حماس، يائسين مرة أخرى. أو بالأحرى دائماً. دائماً يائسين من جديد ولا حماس مرة أخرى. لقد كان الجوع يلتمع في الوجهين، منطفئاً، بلا لون.

– آخ. النوم. ياعيني على النوم. أريد أن أنام. دائماً، أنام ولا أصحو مرة أخرى، أبداً.

قال أحدهما.

تدحرج الاثنان. كانا يسيران ببطء كبير. أكياسهما على الظهر. وكانا تحت الأكياس نحيفين وجائعين.

– ها. آخ. ليست عندي رغبة بعد. لا أستطيع التجمل أكثر. وأنت؟

هتف ذو الوجه الجبني.

– كلا.

قال الآخر. ثم أكمل:

– ولكن ما العمل. أريد النوم. فقط النوم بعدها لا يلاحظ المرء أي شيء. لا يشعر بالجوع على الأقل. هل تعرف كم هو جميل النوم. النوم فقط. ولكن يجب أن نكمل السير.

– نعم.

أجاب ذو الوجه الجبني، ثم أردف:

– يجب أن نكمل السير.

لقد كان يبدو ضعيفاً جداً، هزيلاً، مريضاً بعينين سوداوين يستقران بتعب في محجرين هما الآخران أسودان، في وجه بلون الجبن.

كانا يواصلان السير، فيما كانت الشمس تتلألأ في برك مياه طين القرية، القرية ذات البيوت القليلة والمتباعدة الواحد عن الآخر.

– الحمد لله.

فتح ذو الوجه الجبني فمه، ودخل إلى إحدى البرك. ولكنه لم يأبه لذلك: – لدينا القليل من البطاطا والبيض. عندنا ما يكفي، ثم هذان الرفشان، ربما سنجد شيئاً في الطريق.

وعندما انتهى من جملته ضرب بيده على الرفش الصغير المستقر في كيسه.

. إضافة للرفشين اللذين حملاهما في الكيسين، فقد حملا في أحد الأكياس بعضاً من البطاطا. بعض الأزواج. نصف كيلو ربما. أما الكيس الآخر احتوى على القليل من البيض. ثلاث أربع أو ربما خمس.

ضحك ذو الوجه الجبني أيضاً بعد أن أنهى جملته. كان يشعر بأن عليه أن يضحك عالياً. ولكن صوته كان يسمع كما لو كان رنيناً لصفيح، بدون جرس، تعباً، بلا رنين، مضغوطاً كصفيح. سعل. أما الآخر ذو الندبة فكان كما لو أنه يعض على تفاحة، أخرج صوتاً منكسراً:

– عندك الحق. عندنا البعض من البطاطا والبيض.

ثم فجأة أخرج صوتا حزيناً، هو الآخر بلا جرس رغم أنه حاول مزجه مع ضحكة بدت مفتعلة جداً.

– بيضة شلهاني يايمه، ما رحت ويه هواي.

ولكن بالرغم من ذلك أخذ يجبر نفسه على الضحك. الضحك عالياً، وعندما كان يضحك كان يسقط دائماً خصلاته الشقراء فوق أذنيه، ثم ليزيحها بيديه، دونما غنج، ليعيدها إلى مكانها الأول فقط. ثم أخذ الاثنان بعد ذلك يعلسان بطاطا نيئة. لقد كانت البطاطا وسخة. ولكن هذا كان أمراً ثانوياً. لقد كان لها مذاق. في الحقيقة لم يكن لها مذاق وهي نيئة. ولكنها كانا يتذوقانها، هكذا لانهما لابد ان يعلسا شيئاً.

– لذيذات جداً. أليس كذلك؟

سأل ذو الندبة، بينما يلوك البطاطا بشكل مضطرب، سريع.

– نعم.

قال الآخر وأكمل:

– عندما لا يملك المرء شيئاً.

توقف ذو الندبة عن المضغ وسأل:

– وماذا عن البيض.

مد ذو الوجه الجبني يده إلى داخل الكيس ليخرج البيض. وعندما فتح يده كانت البيضات متكسرة. لقد امتلأ كفه الوسخ، الدهني بسائل لزج.

– أترك البيض لك.

قال ذو الندبة. دون أن ينهي الآخر جملته دفع الآخر ما استقر فوق كفه إلى فمه وهتف.

– ليس سيئاً.

فأجاب ذو الندبة ، وهو يمضغ ما تبقى في فمه:

– يقولون يحوى البيض على فيتامين ب. ود. إنهما ضروريان للصحة. ولكن البطاطا بروتينات.

فلم يجد الآخر غضاضة من الضحك، وإن كان صوته كعادته، منطفئاً، منكسراً، بلا حماس:

– ليس بالبروتينات وحدها يحيا الانسان.

لبرهة كانا قد تركا القرية خلفهما. كانا قد استدارا إلى طريق زراعي طويل. كانا يفعلان ذلك بلا هدف. وبلا هدف كانا يسيران، بلا رغبة، بلا ارادة. هكذا ببساطة، كما لو كان الأمر يجري وحده. بالصدفة.

كانت الشمس تتلألأ في البرك. وتنعكس في الداخل. لم يستطيعا أن يأكلا الكثير من البطاطا. كانا جائعين. ولكن البطاطا كانت نيئة. هكذا. ببساطة.

– هلا عندك سجائر؟

سأل أحدهما:

– كلا.

قال الآخر ثم علق: من أين؟

– السجائر العراقية حقيرة. لاتصلح. تافهة بلا طعم. جافة. قال الأول وصنع وجهاً غاضباً:

– يجب أن يدخن المرء انكليزية، أمريكية، أو افرنجية. صمت برهة، ثم علق دون أن يترك غضبه:

– وسيان عندي. حتى لو كانت عراقية. وإن تكن غير صالحة وتافهة. ولكن بطريقة ما، بطريقة ما يجب أن يدخن المرء شيئاً.

كان ذو الندبة الذي قال يجب تدخين الإنكليزية. ثم تدحرجا بعدها، ببطء وببطء كانت الشمس تتجه إلى الغرب.

– خبز. كم أشتهي رغيفاً من الخبز الآن.

قال ذو الوجه الجبني.

– ليس غير الخبز. مملكتي مقابل رغيف أو حناية.

– وأنا أريد أن أنام.

قال الآخر وتثاءب عالياً:

– الموت أو النوم. هكذا النوم طويلاً. إلى حين يتحسن الوضع. أو سيان عندي النوم طويلاً حتى يوقظني أحد ويقول لي: الآن الوضع أحسن. إلى حين حدوث ذلك أريد أن أنام. هل تعرف كم يكون ذلك جميلاً. إلى حين انبعاث حياة أخرى. النوم فقط.

كان وجهه يحمر لانفعاله. ثم يصبح بعد أن يهدأ قليلاً أبيض. رماديا، كالمرمر، كالورق، كالجبن. هكذا أبيض. كان يقترب من أن يكون وجهاً بلون الجبن الواضح. ولكن وجه الآخر كان سلفاً أكثر بياضاً.

– انظر.

هتف ذو الوجه الجبني فجأة. كان يؤشر بأصبعه على حقل لم يتبينا ملامحه بدقة. لقد كان من الممكن أن يظناه كما يرغبان.

– لا أدري أي حقل. ولكنه حقل خضرة كما أعتقد.

قال ذو الوجه الجبني. أراد أن يستمر في سيره، ولكنه لاحظ توقف الآخر فأردف:

– ولكنك قلت قبلها، إننا يجب ...

توقف قليلاً، ولم تترك عيناه الحقل فتابع:

– أليس كذلك، أنت قلت ذلك، أليس كذلك، هناك عند الجهة الأخرى يجب أن نكون هذه الليلة، وإلا ستأتي الدوريات، الطائرات، لا أدري هذه الليلة عند الجهة الأخرى يجب أن تكون، أليس كذلك؟!

عندها كان على ذي الندبة أن يضحك عالياً. كان الضحك يجعله أكثر شباباً، ثم أخذ يربت على كتف زميله. فأخذ ذو الوجه الجبني يضحك هو الآخر، وبصوت عال. هكذا راحا يضحكان لبرهة.

وببطء أخذ الليل يُلَيِّل عليهما، على الحقل، وبدفء، فيما كان القمر يضحك بمحياه العريض. في البداية لم يتحدثا بشيء. ولكن عندما أصبحا قريبين من الحقل، بدءا يسعلان.

فسأل ذو الوجه الجبني.

– ماذا تعتقد. حقل بطاطا. أم خس. أم لهانة. أو بصل؟ يا عيني بصل! فأجاب ذو الندبة:

– سيان. أخرج الرفش الصغيرة من الكيس ولنحفر سنشم ما سيصل إلى أيدينا.

فأجابه الأول بصوت ضاحك، ولكن مرتجف، متسائلاً و متشككاً.

– غريب. تقول إنك خبير بالخضروات.

وجد ذو الندبة نفسه مرة أخرى مجبراً على الضحك. ثم ليفتح فمه:

– الخبراء تحت التراب. احفر يا صديقي.

كانا يحفران. ولم يعتقدا أنه عمل جنوني. أو أنه بدون أمل. بل كانا يفعلان ذلك وكأنهما لا يريدان أن يعرفا.

– عرق من أجل أمنا الأرض.

قال أحدهما بصوت تعب.

كان ذو الوجه الجبني يجفف وجهه من العرق. ثم بصق في يديه. ثم بدأ يهيل التراب.

كان ذو الندبة يحفر أيضاً، وكانت ندبته الحمراء العريضة، فوق العين اليسرى تعرق أيضاً فتضيف لزوجة إلى الجبهة القذرة، الدهنية التي استقرت فوقها.

– أستطيع تصور أجمل من ذلك!!

قال ذو الوجه الجبني. ثم إنّ، إنّ بصفير عميق طويل، رئوي. لم يكن يئن فقط كان يسعل أيضاً.

– هه. آخ.

قال بخفوت:

– لا أستطيع التحمل أكثر.

– استمر.

قال ذو الندبة.

كانا يحفران باستمرار. وعندما حاولا أن يجمعا ما حفراه. سمعا أصواتاً تأتيهما.

– آخ. إنهم الفلاحون. هؤلاء الحمقى الأغبياء. الآن وبالذات، بمثل هذه الساعة! هتف ذو الندبة، وحاول وضع ما جمعاه في الكيس. ثم جاءت الأصوات تقترب. كانت تتعالى أكثر، وتصبح أكثر وضوحاً. كانا خائفين. لا يدريان فيما إذا كانت تلك الأصوات، أصوات دورية ما أو أصوات الفلاحين. ولكن سيان، لقد كانت أصواتاً شبعة، وخاصة صوت ذلك الذي صاح بهم «توقفوا في مكانكم أيها اللصوص» كان صوتاً شبعان، صوتا مدهوناً بالزبدة، والبيض والجبن واللبن. صوتاً شبعان وكفى. ثم نبح كلب بعدها. كان صوته هو الآخر شبعان. كان يجب أن يكون حيواناً قوياً.

– ها. ما العمل؟

قال ذو الوجه الجبني. كان يرتجف وكانت عيناه تتسعان من الرعب:

– إنه كلب كبير من هذه الكلاب السلوقية العضاضة. أعرفها، لنهرب.

كانا يركضان كان ذو الندبة أكثر هدوءً من الآخر. كانا قد أخذا الرفشين معهما. «لايعرف الواحد ماذا سيحصل» قال ذو الوجه الجبني. كان يضحك بصوت خافت، ولكن ضحكته كانت مسطحة، ضحكة مصطنعة، مجبورة. ثم جاء الصوت الشبعان مرة أخرى «توقفوا» ليعقبه نباح الكلب المتوحش، النهم.

– الكلب يقترب منا.

قال ذو الوجه الجبني وكان يرتجف، وكان جسده رطباً، لزجاً.

– إنه كلب عضاض. كما توقعت.

كان خائفاً جداً يرتعش بأكمل جسده.

– ابق عند مكانك.

قال الآخر ذو الندبة.

كان صوته يرن مضغوطاً، جافاً، مطقطقاً.

– عندما يكون عندنا. أفضل. مايزال الآخرون بعيدين.

– نعم.

قال الآخر وأكمل:

– الرفش عندك ؟

لم يكملا كلاهما حتى كان الكلب السلوقي كما توقعه ذو الوجه الجبني عندهما. كان قوياً، كبيراً، شره الاسنان. «الكلاب السلوقية متوحشة». فكر ذو الوجه الجبني وكان يرتجف بطول جذعه.

وقف الكلب لبرهة بمواجهتهما مستعداً للأنقضاض .الآن أدركا أن الأمر أصبح جدياً. كان الحيوان يصر أسنانه بزئير متوحش. هكذا يصك على أسنانه، متوحشاً نهماً، نهماً بدموية، وفجأة قفز قفزة كبيرة، ليصرخ حينها ذو الوجه الجبني.

– النجدة، النجدة.

في ذلك الوقت اقترب المطاردون أكثر. لم يكونوا كثيرين، كانوا اثنين، ثلاثة، أو أربعة. كان من الصعب رؤية بدلاتهم في تلك الليلة الدافئة.

دوريات ؟ أم فلاحون ؟سيان. كانت أصواتهم شبعانة، دهنية، ممتزجة بالزبدة واللحم والتبغ. لم يركضوا. كانوا يسيرون بسرعة، أياديهم مضمومة بتعجرف، مضمومة في جيوبهم كما يسير الضباط. أحد الأصوات الشبعانة هتف بالكلب أن يرجع. وعندما هم الحيوان بالرجوع. رأى ذو الندبة ذراع الآخر التي كانت دامية اللون، فيما كان وجهه مليئاً بالألم. كان هناك ما يخنقه عند الرقبة. وفجأة أخرج ذو الندبة الرفش، ليمسكها بيديه الاثنتين ثم ليحركها بالهواء، لينهال بها كالبرق، فوق رأس الحيوان الذي كان يهم حينها بالرجوع. هكذا، مرة مرتين، ثلاث ثم ليهدأ كل شيء. في البداية صرخ الحيوان. أنّ بصوير وحشرجة، ثم هدأ كل شيء «مثل بريل السيارة» فكر ذو الندبة. وقذف بالمسحاة الثقيلة جانباً. حشرج الحيوان حشرجة واحدة مرة أخرى. ثم سكن إلى نهايته.

ضحك ذو الندبة عالياً: – الوحش.

ثم ركضا سوية حتى تقطعت انفاسهما. واحد. اثنان كانا يركضان، حتى لم يعد بإمكانهما الركض بعدها لإجهادهما. هكذا ركضا ركضاً طويلاً. كان ذو الوجه الجبني يئن في الطريق. فيما كانت ذراعه تؤلمه طولا المسافه، ذراعه التي كانت هشة، متهرئة، نازفة وبقوة. حتى إنه كان يسعل الآن وبدون انقطاع.

– الحمد لله.

قال الآخر عندما أصبحا خارج الخطر. ثم مسح بكمه جبهته القذرة، الوسخة، الدهنية:

– نعم.

قال ذو الذراع الهشة. كان يحاول الإبتسام. ولكن كانت فقط افتراهة:

ثم هدأ بعدها:

– نعم البطاطا الجميلة. لولا ذلك الوحش.

أجاب ذو الندبة وقد انتهى في ربط الذراع اللدنة.

كان بالأحرى يريد أن يصرخ بصوت عال. ولكن صوته جاء بلا رنين، بلا جرس، بلا نغمة، تعباً، منقلقئاً، منكسراً ليضيع وسط ليلٍ بدأ يحتضن الجسدين المتعبين، عند حدود الطريق الزراعي الطويل، حيث استرخيا دونما حراك، قبل أن يصلا إلى الجهة الأخرى، حيث كانا يرغبان بنوم طويل و....

هامبورغ

١٢ – ١٩٩١/٩/٢١

❖

حدث.. ذات صباح

لبرهة فتح علي عينيه ليرى ما الذي حصل، ولولا صباح الضابط الذي لم يفهمه على إلاطلاق بالجنديين اللذين وقفا قريباً منه، لأغلق عينيه مرة أخرى، وما أصرّ أن يفتحهما بهذا الوهن الظاهر. بصعوبة استطاع تمييز الشارع حيث وقفت الشاحنة التي التقى فوقها مع أجساد أخرى.

بدأت شمس الصباح تلقي أشعتها الحارة بعض الشيء، شعر أنه بعد ساعات –إذا ما بقي مطروحاً فوق صفيح الشاحنة– لن يعود بإمكانه التحمل. وفي تلك اللحظة التي واجهته بها أشعة الشمس، بات وجهه شاحباً وكأنه قد نفض الدم عنه منذ زمن بعيد، فيما بدت اللحية التي لم يحلقها منذ يومين ناشزة ونافرة وجعلت وجهه يظهر هرما غير ملائم له، وإذ رفع رأسه قليلاً ميزّ أربعة أجساد أخرى كانت منطرحة بجانبه بلا حراك، ولو لم ير الجنديين يحملانها الواحد تلو الآخر لظن أنها هلوسة أخرى تُضاف إلى هلوساته السابقة. ولم تبد الأجساد أيما مقارمة، بل أيما حراك أثناء حملها. لقد كانت طيعة وبدت له وكأنها محمولة في الهواء. لقد وضعهم، وبدا له كل شيء مريبا. حتى أنه شعر أنهما ليست عيناه وحدهما اللتان تنفتحان. إنما أنابيب ضخمة من اليأس أيضاً. ترى ماالذي حدث؟ ومتى؟ بصورة عابرة، مشوشة يتذكر. لقد حدث الأمر أمس، وللحظة يشك فيما يعتقد، فبدأ في الإلحاح بسؤال نفسه: إذن أول أمس! أو ... لافرق. يعصر رأسه مع نفسه مرة أخرى:

– لافرق.

لقد حدث ذلك، أمس، أول أمس، اليوم. الأمر الوحيد الذي يهمه الآن هل سيتحمل جرحه أياماً أخرى بل ساعات. وإذ اقترب الضابط منه مع الجنديين شعر أنه يدوخ. وأثناء حديث النفس الطويل يدرك أنه في ساعة ما، قبل زمن. زمن بعيد أو يبدو له بعيداً، مرمياً هناك، حيث ترك الجبهة خلفه،

وحيث سقطوا كيف؟ لا يدري كانوا في خندقهم. كانوا ثلاثة، وكان ليلاً، ليلاً طويلاً، بعيداً، منغرساً خلف شمس الصباح. كان هو رابعاً لثلاثة جنود آخرين، والخندق الذي استلموه تلك الليلة لم يكن كبيراً، ربما يسع جنديين فقط، وفي تلك الليلة اتفقوا على توسيع الخندق في الصباح. وأياً كانت أحاديثهم أو قراراتهم فإنها الآن تختفي من ذاكرة علي وتضيع مع عتمة الليل الغامضة، تضيع ليس مع اهتزازات الخندق والأرض وحدهما، وإنما مع ارتجاج الظلمة. لقد ارتجت النجوم أيضاً ساعتها والفضاء ودارت دورة أمامه. دورة لفته وألقت بعد بعيداً، متى حدث ذلك. لا يدري؟ مرة أخرى ويقول لنفسه: لا فرق.

بطرف يديه يلمس الضمادات التي شدت حول بطنه بأصابعه المرتعشة يتحسس رطوبة دافئة، ولايحتاج إلى مهارة العارف ليتيقن من حرارة دمه التي بدت له مخيفة وأليفة، لا لأنه تحسسها على بدلات جنود كثيرين، إنما لأنها كانت منغرسة في ذهنه منذ زمن طويل. منذ اشتعال الحرب وفكرة أن يكون جريحاً تطارده في اليقظة والنوم، تصطحبه في كل جولاته على الجبهة. والآن يعرف أن هذه الفكرة كفت عن كونها وهماً. إنها حقيقة يستطيع لمسها بيده. والآن يستطيع تحسس جرحه، ويعرف انه جريح مثلما يعرف أن له يدا، أو جسدا ... جسداً ربما سيختفي بعد ساعات أو أيام، لا يدري؟ كلا إنها ليست مجرد فكرة في ذهنه. فعندما حمله الجنديان أدرك كم هو واهماً. لقد كان تعبا لحد الموت. ولو كان بمقدوره لصرخ:

– إنني تعب.

أغلق جفنيه لبرهة، وأسلم جسده طيعاً للجنديين اللذين ابتعدا به عن الشاحنة، بعد خطوات فتح عينيه مرة أخرى ليستدير برأسه بفضول

ويعاين الشاحنة للمرة الأخيرة والتي تجمع حولها هذه المرة عدد من الأطفال. لقد فرح عندما رأى الصغار بدشاديشهم ، لم يصدق عينيه، إذ اعتقد مرة أخرى أنها جزء من هلوساته، ما أثار هذا الخاطر فيه هو رؤيته، عند دخولهم المبني الكائن أمامه، قطعة من الخشب كتب فوقها «مدرسة التضامن الابتدائية للبنين» كلا. يقيناً أنه هلوسة أخرى. وهذه المرة حاول جمع قواه كلها. هل حقاً هي اللوحة كما انتصبت منذ سنين؟ وكما رآها كل يوم عند مجيئه إلى المدرسة؟ وإذا كانوا حقاً في مدينة العمارة فلماذا لم يسلموه إلى أهله القريبين من المدرسة؟ حاول رفع يده ليسأل أحد الجنديين، فشعر كم هي ثقيلة ذراعه. بدأ جرحه يؤلمه، فيما بدا دمه يسيل أثناء مرورهما بمدخل المدرسة ودخولهما إلى قاعة كبيرة.

اجتاز الجنديان الممر المؤدي إلى القاعة بسرعة كبيرة، حتى أن الوقت لم يتسع لعلي ليعاين لوحة الشرف التي علقت عند باب القاعة والتي كتب اسمه فوقها مع أسماء الطلبة الأوائل الأخرين الذين اجتازوا امتحانات البكالوريا.

أصبح الجنديان عند قاعة المدرسة. لم يتوقفا عند بابها ليبحثا عن مكان له. لقد اكتظت القاعة بأجساد كثيرة، انتشر الجرحى بفوضى في كل زوايا القاعة. حتى أن بعضهم ألقي على خشبة المسرح المنتصبة في مقدمة القاعة. لقد ألقوا هناك وكأنهم مرميون منذ القدم. وأيا كان أنين كل منهم فإنه يضيع مع أنين الأجساد الأخرى. وليس بالإمكان معرفة أي منهم يتنفس لحظاته الأخيرة، ومن يعيش بعد يوم، يومين أسابيع!؟ والذين مايزال شيء من الوعي في رؤوسهم، لايعرفون متى حدث ذلك، أمس؟ اليوم؟ هل تعرف الشظية زمناً؟ من يستطيع التكهن أو القول متى تنشطر الشظية إلى شظايا؟ ومتى يستسلم اللحم إلى تلك الكتلة الجارة الحادة؟

بل متى يبدأ الأنين؟ لا أحد يعلم. وبالنسبة لأولئك المرميين في «مدرسة التضامن الابتدائية» يبدو السؤال عبثاً: لاحاجة لسؤالهم هم هنا؟ هم أنفسهم لا يعرفون، لقد كانوا هناك وكأنهم قطع أثاث من المدرسة. من حسن حظ طلاب المدرسة أنهم ضائعون الآن في عطلتهم الصيفية. وإلا يقينا ستجد الأجساد التي اصطبغ بعضها بالدم وتعفنت الضمادات على بعضها الآخر. والتي عبثاً تنتظر طبيباً، إذ قد يكون هو الآخر جريحا في مكان ما، أو بين المكتظين هناك. يقيناً ستجد هذه الكتل مكاناً آخر، أو ستلقى في مكان آخر، وربما مستودع للطحين، جامع مهجور، أو مقبرة سويت قبورها. ربما في ملعب لم يعد صالحا للعب الكرة، أو بيوت لهجر أهلها، المهم سيجد ذلك الضابط الذي وقف في منتصف القاعة وقد أمسك بخيزرانة سيجد مع أصدقائه الضباط مكاناآخر لجرحى آخرين سيأتون غداً، أو بعد غد، من يدري؟ ربما سيكون المكان مزبلة أو مجزرة لحوم أو مدرسة أخرى فرغت من طلابها؟ هل يصعب عليهم حقاً إيجاد مكان؟ كلا. لقد اكتظ رأس علي بتلك الأسئلة عندما وجد نفسه مرمياً في زاوية قريبة من المسرح. لايدري كم مر من الوقت عندما انفتحت عيناه مع أنابيب الرأس الضخمة؟ شيء واحد حمله على فتح عينيه بحماس هو شمس الصباح التي مالبثت أشعتها أن طردت رغبة عنيفة في النوم اجتاحته. لقد أصر أن يبقى يقظاً، لايريد أن يفاجأ بموته، لذا فقد أخذ بين لحظة وأخرى يتحسس جرحه، لقد توقف دمه عن النزف ... وللمرة الأولى لم تزعجه لزوجة الدم هناك، إنما بعثت به الشعور بأنه يعيش لو كان بإمكانه الآن، لنهض من مكانه وبدأ في الرقص. كان بوده أن يصرخ:

– إنني أعيش.

مع الوقت يدرك أيضاً أنه مجرد شعور عابر، فيهجس كم هو واهن به أسى ثقيل يزداد عندما يعاين خشبة المسرح، قبل سنوات كانت قدماه

تتحركان فوق الخشبة بقوة وفرح. في مرات كثيرة مثل فوق هذه الخشبة وخلف الخشبة يقع مستودع الرياضة أيضاً، وهناك كان يلبس ملابس الكشافة، بسرعة عجيبة تمر في ذهنه سنوات المدرسة، وعندما تصبح عيناه عند باب القاعة يختلط في ذهنه منظر رجل الانضباط المنتصب هناك فرحاً بخيزرانته المبللة بالماء كلما ناداه المدير عند ضرب «الفلقة».

ومثلما كان يتجنب رؤية «دبيس» في ذلك الوقت، فقد تجنب الآن النظر في اتجاه رجل الانضباط، لاسيما عندما لاحظ أنه هو الآخر ينظر إليه.

تحرك علي في مكانه، وتحركت معه البطانية المتهرئة التي ألقيت، حول عينيه إلى شباك القاعة. يعرف ميزة هذه القاعة منذ زمن طويل، لقد امتلأت بالشبابيك، حتى أنهم عندما كانوا يتحركون فوق خشبة المسرح آنذاك، كان بإمكانهم أن يروا أطفال الحي المتجمعين عند زجاج النوافذ والمتطلعين إليهم بفضول. من مكانه يستطيع علي أن يعاين الشارع الذي بدأت الحركة فيه وفي البعيد لمح النسوة اللواتي شرعن بالتجمع عند بائعة القشطة، وقفت بشعرها المنثور، بعيونها التي مايزال آثار النعاس ظاهراً عليها. هل هي هلوسة أخرى من هلوساته، أن يتعرف على الوجه القديم ذاته لبائعة القشطة التي يعرفها منذ كان طفلاً؟ ليست عيناه اللتان تنفتحان الآن فقط، بل ليست صمامات الرأس الضخمة، إنما تنفتح كل مسامات جسمه. كم بوده أن يخترق الزجاج الآن، هل ينفعه أن يصيح؟ لا يدري أين نسي صوته؟ هل ضاع هناك عند موقعهم في الجبهة؟ إذن لم ترتج النجوم آنذاك، ولاعتمة الليل الغامضة، إنما هي الأرض التي ابتلعت صوته في صمتها. هل هي هلوسة أخرى؟ من الأجدر به ألا يسأل، إنما ليفتح عينيه باتساعهما، وهذا ما يفعله الآن. لم تبد له بائعة القشطة أليفة في جلستها

هناك. ولا منظر الأطفال الضاجين حولها. إنما هناك أمر آخر جعل كل الدم يعود إلى عروقه. لقد بزغ فجأة وسط النسوة المتجمعات وجه أليف يعرفه منذ زمن بعيد. بل منذ اليوم. هل هي هلوسة أخرى، أن يلمح وسط النسوة أمه التي انتصبت هناك، وقد نثرت شعرها الأسود فوق كتفيها، فيما لم تستطع العباءة أن تغطي فتحة صدرها التي كشفت عن ثديين مكتنزين. هل هي هلوسة، أن تقف أمه خلف الزجاج بوقفتها القديمة هناك. بالضبط مثلما كان صغيرا. كانت تحمله بحضنها وكان فمه لايغادر صدرها. وحتى عندما كانت تزيحه لبرهة إلى جانبها قائلة:

– اتركني لحظة أعاين الصحون.

فإنه يظل متشبثاً بصدرها، لايطاوعها في الابتعاد بفمه، وبذلك الصوت الذي يجعل النسوة تتطلع الى أمه، يصرخ الآن وكأنه يجلس بقربها:

– أريد الحليب.

يجفل رجل الانضباط من مكانه ويتحرك باتجاه علي بانفعال، يلاحظ علي غضبه فيدرك وبقوة أنه يعيش.

هامبورغ١٩٨٦

❖

بورتريه امرأة محزونة

إلى هدى بعد عشرين سنة

نهضت من الفراش، بعد أن ظلت مستلقية لوقت غير قصير. اتجهت إلى المرآة التي استقرت عند الزاوية الأخرى من الغرفة. جلست على كرسي صغير، وأخذت تتأمل وجهها. عبثاً تحاول مد يدها لسحب بعض من علب المكياج المصطفة بجانبها، عند طرف المرآة، لقد توقفت يدها قبل أن تلامس عدتها هناك، لترجع وتستقر في حضنها. ليست هي المرةالأولى. لقد انطفأ في داخلها الحماس، ولايجديها تذكر بريق الكحل الأسود في عينيها، ولا التماع اللون القهوائي المحترق الذى كان يضيف لشفتيها العريضتين الرطبتين دائماً شهوانية أكثر.

رفعت يدها الأخرى لتعبث بشعرها، كانت على يقين أن الحنة لم تعد تنفعها. إذ كان امتزاج لون شعرها الأسود مع لون الحنة يضيف لها حماساً، باستخدامها، ولكن هذه المرة الأمر مختلف، فلون الشعر الأبيض يجعل من الحنة مضحكة وقبيحة، ربما إذا ما عبثت بين خصلاتها كثيراً، ستجد كما كانت تجد قبل سنين بقعة سوداء صغيرة؟ ولكن من العبث، لقد استحوذ الشيب على شعرها جميعاً، يا الله لماذا شاخت بهذه السرعة!؟ وقفت بجذعها كاملة أمام المرآة. لقد ظلت محافظة على قوامها، فلم تختلف طريقة وقوفها، كما كانت تفعل طوال يحاتها. لم يتهدل كتفاها، إنما حافظا علي مكانهما، محتضنين الرقبة الجميلة التي استقرت بينهما، كانت عندما تقف ترفع جبهتها، كراقصات الفلامنكو. كان ثمة دائماً شيء من الإصرار، ولكن بماذا تنفعها تلك الوقفة إذا ما عرفت أن ما يتخفى وراء ذلك الثوب قد ذبل. ألم تكف عن خلع ثيابها أمام المرآة منذ زمن طويل، بعد أن كانت تفعله بلذة قبل سنين طويلة؟ لقد امتنعت عن ذلك، منذ أن رأت نهديها يضمران كاشفين عن تجاعيد وصلت في غزوها لها هناك. حتى عجيزتها بدأت تكبر لاباستدارتها الشهوانية السابقة، إنما بترهل شحمي قميء أما الفخذان اللذان كانت تفتخر بجمالهما، فقد ترهلا عند الربلتين،

فيما توترت بعض الشرابين هناك.

عقدت يدها حول بطنها، وجلست مرة أخرى، لامت نفسها، كأن بردا لسعها للتو، أو كأن يداً خفية ستقلع ثيابها فجأة، أو كأنها خافت من خواطرها التي ستجعلها تنضو بيدها هي الثياب، ياالله لماذا شاخت بهذه السرعة!؟

لا تدرى متى حدث ذلك بالضبط. إذ ذات يوم، ذات شهر ما، في سنة ما، كانوا قد قرروا الكف عن الإرسال في طلبها، لسماع ماسترويه، لقد اختفى كل أولئك الذين كانت تسحرهم دهشة حكاياتها. لقد انحسرت تلك الأماكن التي كانت تنفتح أمامها سابقاً بالعشرات. لقد كفوا جميعاً دفعة واحدة. وكأنهم قد اتفقوا بعد أن عقدوا جلسة سرية مع الشيخوخة. لقد نسوا ولمرة واحدة انشدادهم المتوتر لما يطلقه فمها، هي التي كانت تتحرك أمامهم بحيوية، مصاحبة بابتسامة لم تغادر محياها إطلاقا كاشفة عن أسنانها المصفوفة بعناية فائقة والتي كانت تبرق مع بريق عينيها السوداوين الكبيرتين، وإذا ما انبعثت ضحكتها لتجلجل في صمت القاعة، فقد كان دائماً يصاحبها حفيف خلاخل وضجيج أساور يدوية، واهتزاز أقراط كبيرة. ولم يحدث ذلك عندما تهز رأسها فقط، إنما عندما تتحرك من مكانها لتتحرك وتجلس على إحدى الوسادات الصغيرة المنتشرة فوق خشبة المسرح، لقد كانت تسير دائماً بخطوات سريعة ساحبة خلفها ثوباً حريرياً براقاً أضاف لقوامها رشاقة غير عادية. يا الله كيف كانت تصفن لبرهة قصيرة عندما يجلس هناك، في مجلسها الذي عملته كما عمله شهريار، لقد كانت نهمة دائماً في امتلاك جمهورها، لذا عندما كانت تصفن، مستندة إلى مخدتها، كانت تتطلع وجوهم الواحد بعد الآخر، وبنهم، وكأنها تريد لهم جميعاً إلى جانبها، حتى تتأكد أنهم كلهم، هناك، حيث هي ترغب، حينها تبدأ بأخذهم معها، تولجهم معها في رحلات

السندباد السبعة، فى أسواق سمرقند وأصفهان والبصرة وبغداد، فى أزقة يهودية ونصرانية ضيقة، فى بيوت سرية، ليروا هناك بعينهم، كيف أن نساء الملوك لا ينمن بشهوانية كافرة إلا مع عبيدهم، وإذا التذوا لمنظر الجنس المباح، فإنهم ينتهون لرؤية رؤوس أولئك العبيد أنفسهم تقطع بلذة من قبل ملوكهم، وكيف أن أولئك الملوك يعملون حفلات خاصة لقتل ضحاياهم، دائماً كانت هناك جوارٍ بجانبهم ومجالس اكتظت بأنواع الخمور والأكل. وإذا ما سئم جمهورها من رؤية ذلك، ترى كيف أنهم يتوسلون لها بنظراتهم أن تخلصهم من تلك المحنة التي أدخلتهم بها، وهي التي كانت تفتح عينيها بسعتها وحدها التي ترى ذلك، تعرف أنها وحدها من علية تحمل أنين مدن سمرقند والبصرة وأصفهان وبغداد فتصمت لبرهة، عاطفة على أولئك الجالسين أمامها بكامل أناقتهم والذين كانوا يبحثون فى قصرها عن سحر شرق تخيلوه مليئا بالجنس والعطور فقط. فتهمس لنفسها: كفى لقد أدهشتهم. هي التي كانت تريد أن تفاجيء فقط. وبسرعة تغير مجرى حكايتها فتأخذهم هذه المرة في رحلة مع بائعة الروبة ودلالة الزواج، فترى كيف أن وجوههم تتراخى، مسترجعة الدم الذي اختفى عنها قبل قليل، ومعلنة عن فرح سرى.

كم ليلةً دارت بقامتها الجميلة فوق تلك المسارح، ألف ليلة وليلة؟ كلا أكثر. لقد فاقت شهر زاد التي لو التقت بها لقالت لها: أسلمك الأمور أيتها الأخت المبجلة أنت وحدك الكفيلة بإدارة الرؤوس. ولكنها لم تكن مقتنعةً أبداً بما تقصه، كانت تبحث دائماً عما هو أجمل، عن سحر لاتدرى أين، ولكنها على يقين أنها ستعثر عليه ذات يوم، وفى مكان ما. ويزيدها حماسها أن تعرف أنها سليلة لشهرزاد لاغير. لقد امتلكها ذلك الهاجس منذ أن بدأت التحرك فوق المسارح. يا الله كم كانت تتحرك بشموخ فوق الأبسطة الشرقية التي كانت تفرشها هناك لم تتخل يوما ما عن

عدتها. كانت كلما ذهبت إلى المسرح تأخذ عدتها. معها: بساط شرقي كبير، مخاد شرقية صغيرة، ثوب حريري براق، شيلة عراقية سوداء، حجول كبيرة من الفضة، أسوار ذهبية، أقراط فضية كبيرة، أعواد ومساحيق من البخور. لقد كانت تحتفظ بعدتها وكأنها تحتفظ بكنز كبير، وبالفعل كانت عدتها تكبر مع الأيام، إذ كان ثمة دائماً ما هو جديد تشتريه في رحلاتها لبلدان شرقية، وإذا ما اختفى شيء من العدة فإنها تقلب الدنيا وتقعدها ولن تستقر وتهدأ حتى تجده، أحيانا كانت تضطر لإلغاء أمسيتها. لاتستطيع الصعود على المسرح بدون وجود العدة بكاملها. ولن ينفع إذا ما هددها أصحاب الصالات بعدم دفع أجورها. إذ لم تفعل ذلك للحصول على النقود فقط. لقد كانت مقتنعة بالقليل الذى تحصل عليه. لقد كانت تقول لهم: ما يهمني هو فني. بالفعل كانت مغلفة بفنها. وكانت كل ليلة وقبل أن تخرج من بيتها متجهة إلى الصالة، تستلقي فوق فراشها ساعات طويلة، راحلة إلى أماكن تركتها لها شهر زاد، أسواق مملوءة بالعطور والبهارات، ضاجة بفلاحين لا تغادر السجائر أفواههم، أطفال حفاة يتجولون مع أمهاتهم في أكواخ مدن مليئة بالقصور، بنات جميلات وقفن خلف أبواب البيوت يتطلعن خلسة، منتظرات مرور عشاقهن الذين سيلقون حتما رسالة شارحين فيها وجدهم وظمأهم لقبلة قصيرة أو احتضان جسد ولو للحظة واحدة. ألف ليلة وليلة تأتيها، فتبدأ في تخيل ما تقصه، وكأن شهرزاد تعطيها اللازمة أو المدخل. وبعد زمن غير قصير تكون حكاية تلك الليلة قد استقرت فى ذهنها كاملة ولكنها لم تنس إذا ما تحركت فوق المسرح تحوير وحذف وإضافة ما يمليه خاليها بصورة مفاجئة. لقد أسلمت نفسها تماما خيالها، هو الذي يقودها حيث يشاء، غير خائفة من الدخول فى مطبات صعبة. لقد كانت تثق بنفسها مثلما كانت شهر زاد واثقة من إدارة رأس شهريار، يا الله كل ما فعلته، لم يترك سوى رائحة تسير معها حيث

ذهبت، رائحة تزداد قوتها عندما تعاين عدتها الكبيرة التي استقرت في صندوق خشبي أسود كبير، والذي لم تفتحه منذ زمن طويل، لا تدري لماذا لم تعجبها فكرة كتابة ما تقرأه، كم نصحها زوجها الأوروبي، الذي تركها قبل سنين. لقد كان يلح عليها. وعندما ضبطته ذات يوم يطلع على الآلة الكاتبة، منصتا إلى كاسيت كان قد سجله أثناء إحدى أمسياتها، استشاطت غضباً، وأخرجت الكاسيت لتدوسه بأقدامها، وترميه في القمامة، كانت تريد أن تبقي في خيالها فقط. وهذا ما قاله لها زوجها: «إنك تريدين أن تبقي راحلة في رأسك فقط» بالفعل كانت تتصرف أغلب الأحايين في حياتها وكأنها شخصية من شخصيات حكاياتها كانت أبدا حالمة. وحتي زوجها لم يعد يطيق العيش معها. لقد حزم أغراضه ذات يوم ورحل تاركاً لها ورقة صغيرة على مائدة المطبخ، عشر سنوات من الزواج الخيالي. لقد كنا دائماً في رحلة تعبت من الرحيل معك. لم أعد أطيق. أغادرك غير آسف أتمنى لك السعادة..

لقد حزنت عندما رأت الورقة، ولكنّ حزنها اختفى تباعا عندما حل المساء، وعندما أسلمت نفسها لحكاية جديدة. ولم تسأل نفسها آنذاك،- مثلما تفعل الآن- لماذا تعيش بالفعل معه عشر سنوات، دون أن تأخذ يوماً تلك العلاقة محمل الجد، لاتدري، ومثلما كانت تقول لنفسها سابقا تعيده الآن: ليكن ما يكون: لم يهمها فى حياتها كلها غير خيالها. لقد سحرها الحلم. ولا تدري متى بدأت في نسخ أول حكاية، منذ مغادرتها بلادها؟ أم منذ أن عرفت أنه لم يعد بإمكانها الرجوع؟ أم منذ أن انتهت عائلتها هناك، ماتت أمها وأختها الصغيرة في القصف، وانتهى أبوها إلى شلل تام، وأخوها الأصغر جندي أسير، مرة أخرى تسأل متى بدأت في ذلك؟ ربما منذ أن بدأ الأنين يصاحبها، منذ أن كانت طفلة، أو منذ دخولها سن المراهقة، وتفتح ثدييها؟ أو ربما منذ سماعها أحاديث أمها وخالاتها

ومعرفتها من طيات ما يدور بينهن، أن الرجال أكثر هشاشة وممكن تحطيم كبريائهم بسهولة؟ ترى لماذا تنبش بذهنها عن ذلك؟

يا الله كم مرت تلك السنون بسرعة، وذلك الحلم بالرجوع قد انتهى من رأسها تماما وإذا ما رجعت فماذا ستجد غير حطام يفوق حطامها لتكف الآن وتنتهي من كل تلك الأسئلة ولمرة واحدة.

لبرهة ظلت هادئة بلا حراك وفجأة وقفت، واتجهت إلى كنزها المستقر عند زاوية الغرفة رفعت غطاء الصندوق لتخرج عدتها واحدة بعد الأخرى فرشت في الأول البساط الشرقي فوق الأرض ثم وضعت المخدات الصغيرة فوقه. حملت ما تبقى حيث فراشها وعندما أصبحت هناك، التمعت في ذهنها فكرة مفاجئة، وبسرعة نضت الثياب عنها بسرعة، دون أن تعطي ظهرها للمرآة. إنما وقفت قبالتها هناك بكامل جذعها، وكأنها تعلن مثلما تعلن دائماً: ليكن ما يكون. لم يخفها ترهلها هذه المرة، إنما راحت تلبس ثوبها الحريري الأزرق البراق، ثم لتضع حجليها، وأساورها اليدوية وأقراطها، حملت الشيلة واقتربت من المرآة أكثر وعندما انتهت من لف شعرها بها، عرفت أنها الآن بإمكانها أن تبدأ في القص مثلما كانت تفعل دائماً، استدارت متجهة صوب المخدات وفي ذهنها رغبة واحدة فقط، أن يكون هناك ولو شخص واحد يسمع ما سترويه وإن كان مملاً.

❖

هنا .. في تلك المدينة البعيدة

بفم مليء برائحة التبغ أخرج محمد سيلا من الشتائم:

– اللعنة، لم أرغب اليوم بتوديع الجيران مرة أخرى، ربما سيظنون أنني مجنون.

لم يصغ علي لما قاله، إنما دفع قنينة من العرق الرخيص إلى فمه، وبعد أن أتى على ربعها، أحكم إغلاقها، ودفعها إلى جيبه. بنفاذ صبر قال لمحمد:

– يجب أن نسافر غداً. لا أحتمل هذا التأجيل.

– منذ مدة ونحن نقول غداً .. غداً اللعنة.

قال محمد ذلك ليسكت بعدها، فيما رفع رأسه يعاين الشمس التي عكست أشعتها فوق وجهه المستطيل. بانت تقاطيع وجهه عميقة هرمة، وفي تلك اللحظة التي مد يده إلى جيب سترته ليخرج هو الآخر قنينة خمر رخيص، كانت السماء صافية، تنفث أنفاسها الباردة على شكل بخار برتقالي مشتعل يغلفهما ويغلف المتنزه الذي قل زائروه الآن، فيما اكتسب العشب نداوة لمعت تحت نعليهما المهترئين، وأمامها زحف الضوء حاداً فوق ماء الترعة، وتلألأ في خطوط تتداخل وتمتد تشبه حركات البط الذي هدأ الآن ضجيجه، والذي تحرك بانسيابية مقترباً من حافة الترعة حيث امتدت أقدامهما. وكان بإمكانهما أن يرياه من مكان جلوسهما فوق المصطبة، لو انحنيا بجذعيهما إلى الأمام قليلاً، وقذفا نظرة إلى الأسفل. لم يفعلا ذلك. فقد انشغل علي بلف سيجارة له، وراح يتمتم بكلمات تضيع بطراوة الهواء، فيما كان محمد منشغلاً بفتح سدادة قنينة العرق التي استقرت في يده منذ لحظات والتي أبت أن تنفتح بسهولة. مد يده إلى جيبه ليخرج منديلاً متسخاً. لفه حول السدادة. كان من السهل عليه أن يشعر برطوبة راحتيه الباردتين، دفع القنينة بعد فتحها إلى فمه، وراح صوت

ادنلاق العرق يثير صوتاً شبيهاً بقرقرة الماء. وإذ انتهى مسح فمه بكم سترته التي اتسخت عند الحافة. أرجع القنينة إلى جيبه وهتف:

– هل تعرف أن الطيارة حلقت اليوم عند الظهر تماماً. أستطيع تخيل ذلك. الطريق أربع ساعات لا أكثر. تصور نحن الآن هناك بعد ثلاثين عاماً.

قاطعه علي:

– لاتبالغ بعدد السنين.

فأجابه محمد:

– آخ لا تبالغ .. هل ذاكرتك أقوى من ذاكرتي؟

وضع علي السيجارة في فمه، وتقلص الخمسيني. أخرج عود الثقاب من جيبه. أشعلها. ثم أرجعها إلى جيبه.

هل احتفظت ببطاقتك جيداً.

قال محمد بانزعاج: نعم، أداريها كطفل.

أن يكونا متضايقين، ذلك أمر لا يشك به أحد، فمنذ زمن والكآبة تشكل سمة وجهيهما الخمسينيين، وفي المساء يحفر الحزن أخاديده فى وجهيهما اللذين ازدادا سمرة وكأن الألم شمس قوية أبدلت لونيهما. ومع الأيام كانا يدركان بأن الساعات تضيع منهما وتندلق مثلما الماء بين الأصابع. وأن مشاريعهما تحبط، الواحد بعد الآخر، وما تمنياه، ما حلما به، أيا كان، يضيع ويختفي كذلك الأفق الذي احتضن الشمس أمامهما.

– كم أتألم عندما أودع جاري. دائماً يقول أيها الصديق أرجو أن يحالفك الحظ هذه المرة. هو الآخر يحلم بالرجوع إلى بلده سحب علي

نفساً عميقاً سيجارته، ثم دفع بها إلى محمد الذي تناولها دونما تعليق.

– الألم أصبح كالدوام الرسمي. ولكني كثيراً ما أتساءل ما الذي بقي لناهنا.

استدار بوجهه إلى علي:

– هل تعتقد أن الألم سيختفي هناك. هل تذكر جملتنا التي كنا نرددها دائماً. إذا أنت ....

توقف قليلاً ثم تمتم بغضب:

– لقد نسيت .. هل تستطيع تكملة الجملة، رغم أن ذاكرتك هي الأخرى يبست على ما أعتقد.

أخرج علي قنينة العرق مرة أخرى. أخذ جرعة ثم أرجعها إلى جيبه ورد على علي باستفزاز:

– أنت لم تُخرَّب كما خُربت أنا. ما حصلت عليه لم أحصل عليه أنا. أنت المسؤول عن كل خرابك. كنت تشتغل. كانت لديك زوجة شرقية جميلة ولكنك ....؟

قاطعة محمد بعنف.

– إنك لا تكف عن ترديد هذه الاسطوانة القديمة، وكأن ذلك عذرا لمنعي من السفر. آخ منك ياعلي ..

رفع علي رأسه باتجاه الشمس الذي بدأ إشعاعها يزداد اشتعالاً ، أراد أن يقول لمحمد شيئا ولكنه سكت. كم كان بوده أن يسكن النظرة هناك، أياماً، أسابيع، شهوراً، بل سنينا. فمع الغروب يسري في دمه شيء غامض، شيء

يحمل معه الحزن والمسرة، شعور يتمرغ في الدم، لا يستطيع تحديده، أحياناً يفرحه، وفي أحيان كثيرة أخرى يجعله كئيباً جداً. ترى ما الذي يبوح به الغروب؟

– هل تتذكر الغروب في مدينتنا. له طعم آخر، بل رائحة لا أستطيع شمها هنا.

كذلك ألقي جملته التي وصلت أذن محمد، الذي سرحت عيناه بعيداً.

– تقول أنا خربت كل شيء. وتقول إنني لم أفسد فقط زوجتي إنما ابنتي. شيء غريب أن تردد ذلك أمامي. نحن أصدقاء منذ أكثر من ثلاثين سنة.

كان محمد قد لفظ الجملة الأخيرة بيأس واضح، وأخرج قنينة العرق من جيبه. أخذ جرعة، أغلقها. ووضعها هذه المرة إلى جانبه.

– ثلاثون سنة. ألا تذكر يامحمد. كحلم. هل تتذكر حين غادرنا مدينتناسوية.

هز علي رأسه:

– غادرنا؟ لم يكن أمامنا حل آخر.

سكت، ثم أضاف:

– آنذاك قلت لي عندما وصلنا هنا، لنسكن هنا، إنها مدينة تشبه مدينتنا بترعها وأنهارها الصغيرة الضيقة. ولكن فكر قليلاً، رغم هذه الصداقة التي بيننا وأنت تحملني مسؤولية خراب زوجتي وابنتي أيضاً. أنت أيضاً كنت تضرب زوجتك الغربية والتي احتملتك كثيراً، حتى أنها

صرخت بوجهك: لن أبقى مع مدمن.

نهض علي من مكانه بضيق. بصق، ثم رجع إلى مكانه.

– إنك مضحك يا محمد. تردد عليّ هذه الاسطوانة. من يحترم تصرف رجل يجلب معظم الليالي نساء إلى غرفته وحيث تنام ابنته رفع، محمد يده مستنكراً:

– كانت دائماً نائمة. ولكنها كأمها ستنتهي في مبغى. دفع علي قنينة الخمر إلى فمه. وبعد أن أتى على مقدار لا بأس به عاين الزجاجة، ثم علق ساخرا.

– كانت زوجتك شرقية طيعة، ليست كزوجتي التي كانت تتحدث عن تحرر لا أتحمله.

وبسرعة أجابه محمد:

– ولكن كيف انتهت، لم أكن مسؤولاً عن ذلك. كانت تقول بأني أعاملها ككلبة. هل ذلك سبب كافٍ ليجعلها تنتهي عاهرة؟ سكت لحظة. وفي تلك اللحظة، بدأ صوت خفيف لحفيف الأغصان يتردد بتقطع.

– أحياناً أشعر يا علي بسرور خفي. ليس هناك ما أخاف فقدانه بعد.

ضحك علي بسخرية، واضطربت عيناه، وبدتا تعبتين، وبدت الدائرة تحتها باتساعها.

– الحزن، الفرح، كلمات أصبحت قديمة. لا أعرف ماذا تعني.

صمت قليلاً، ثم صاح وهو يضرب فخذه براحته!

– آخ، ثم لمن تقول حزنك؟

ساد الصمت المكان، فيما أخذت الشمس تلقي بنصفها خلف خط الأفق، الذي كان يضيع خلف أشجار المتنزه. تحركت الأشجار بخفة. تردد على جنبات الطريق ضحكات وأصوات مختلفة. مسنون، عشاق، صبيان. كان الاثنان أدارا ظهريهما إلى المارة. بقيا على صمتهما دقائق، وكأنهما قد قررا أن يسلما نفسيهما الى الساعات المتجمدة في الزمن، وبدا وكأنهما يحاولان جعل رأسيهما فارغين. لا مشاريع عظمة، إنما تطامن غريب يحمل أسى خفيفاً. انحنى محمد بجذعه إلى الترعة، وراح يؤشر للبط بأصابعه.

– هل تذكر بطاتكم التي كانت تسبح في الساقية التي أمام بيتكم. أخرجت البطات أصواتاً، وراحت تتحرك باتجاهات مختلفة، فيما ضرب البعض منها أجنحته في الماء، محدثاً صوتاً أثناء ارتطامها.

– أتذكر كيف أننا سرقنا مرة إحدى البطات لنشويها في البستان المجاور وبعد سكرتنا اللعينة. أعتقد أن أمي لم تقتنع آنذاك بأن غريباً قد سرقها.

ضحكا سوية. ثم هدءا بعد برهة.

– لا يزال بيتكم على وضعه. المحزن أن بيتنا قد تغير وأن أهلي يسكنون الآن مدينة أخرى. ترى ماذا سأجد هناك إذا سافرت؟ فتح محمد قنينة العرق، وأتى على ما بقي بها. ثم ألقى بها عند قدميه، مسح فمه

– علينا أن نشتري خمراً لهذا المساء.

صمت ثم همس له:

– إياك أن ترجع البطاقة. يجب أن نسافر غداً. سأودع جاري هذه المرة بجدية.

فأجابه علي:

– طبعاً لا أبيع البطاقة. ما الذي بقي لي بعد كل هذه السنين سأذهب، وليفعلوا بي ما يشاؤون عندما نصل المطار ...

أنا لا أخاف أحداً .. ولكن ما أخشاه هو ....

سكت ثم أضاف:

– هل تذكر جملتنا التي تعلن أن الخراب واحد وفي كل الأماكن سحب محمد كيس التبغ من جيبه، وشرع بلف سيجارة. انتهى بسرعة من ذلك. دفعها إلى فمه. أخرج عود الثقاب من جيبه. أشلعها. وضع كيس التبغ والثقاب بجانبه، أخرج نفساً عميقا.

– أنت الذي خربت حياتك هنا يا علي. كان لديك عمل، وزوجة جميلة وطيعة كما لو كانت شرقية. ولكنك أصبحت مدمناً. رحت تضربها بسبب وبلا سبب، أنت دفعتها إلى الذهاب مع آخرين.

نهض علي من مكانه مذعوراً:

– من السخافة أن تقول لي ذلك بعد صداقة طويلة.

مد علي يده إلى محمد وسحب السيجارة منه، أخذ نفسين سريعين ثم أرجعها اليه:

– لقد اتفقنا البارحة أن نسافر اليوم وفي كل الأحوال. هل تضمك عليّ؟ سكتا لحظة. كانت الشمس قد وصلت إلى الجزء الآخر من العالم، فيما فرش الليل عباءته السوداء فوق المدينة، معلناً عن انتهاء نهار آخر. أصبح الهواء حاداً بعض الشيء وسرت برودة جعلتهما يزرران سترتيهما.

المتهرئتين همس محمد وكأنه يخاف أن يسمعه:

– علي أنني أخاف أن أصل هناك. لا أريد أن أموت هل تعرف. دفع علي بالقنينة إلى فمه وأتى على بقيتها. رمى بها إلى رجليه

– أعطني نفساً آخر.

أخذ السيجارة من يد محمد. وراح يدخنها بنهم حتى أتى عليها. نهض من مكانه تمايل قليلاً. كان نقيق البط قد أصبح أكثر وضوحاً. نهض محمد، الذي لم يستطع هو الآخر تثبيت قدميه على الأرض. اتكأ بجذعه على علي الذي فتح فمه:

– الآن نذهب لشراء الخمر. وغداً نسافر .. أعتقد بأنه ليس المستحسن بيع البطاقة إذا لم تكن عندنا نقود. هل أخفيتها جيداً . بصراحة أنا لا أدري أين أخفيتها .. أرجو ألا يحدث كما يحدث كل مرة ... لم يرد محمد عليه، إنما تركه يلقي بجملِه، وبعد أن أدرك أنه قد انتهى، سحبه من كمه وهتف به:

– هل تذكر. أنا سكران وأنت مجنون من ذا الذي يقودنا إلى المنزل. لنذهب. سنشتري الخمر بأي ثمن.

غادرا مكانهما. ترنحا قليلاً أثناء سيرهما. كانا يشقان طريقهما كنقطتي ضوء وسط عتمة بدأت بهجومها فجأة.

❖

تلك الظهيرة الساخنة

لم تكن ظهيرة ساخنة فقط، إنما كنت أشعر بأسفلت الشارع بعكس رطوبة يعكس رطوبة لزجة تصل حتى عيني، وتجعل الرؤية تغيب. كنت تعباً بعد مشاجرة أخيرة مع صديقتي، التي باحت لي وبشكل نهائي بأنها ما عادت تطيقني، ولا تجد حلا أمامها غير تركي، رغم أن ذلك يحزنها بعض الشيء. إلا أنها قد حسمت قرارها. لقد حاولت إقناعها بطرق شتي حالفاً بكل معابد وقديسي العالم بأنني أحبها ولا أستطيع العيش بدونها، ولكن هباء ... لقد كانت حازمة جداً، وإذا كنا قد تبادلنا كلمة الانفصال في شجاراتنا الأخرى، فهذه المرة يبدو الأمر جدياً من اللازم، فعندما يعتاد المرء على نوع من الشجارات، التي يتبادل فيها الحماقات، يكون من السهل لـ اكتشاف متى يبدأ الجد. وفي تلك الظهيرة، عرفت أن انفصالنا أمر واقعي لامحالة. لذا عندما خرجت من المطعم الذي تركتني فيه جالساً، بعد مصارحتي بقرارها، لم يكن يهمني سوى إيجاد أقرب بار. لقد اجتاحتني رغبة عارمة فى احتساء ربع من العرق. وهكذا قادتني قدماى إلى بار قريب من سوق «اللنكة» خلف سينما ميامي. كان أحد بارات الباب الشرقي، التي كنت أتجنبها في الأيام العادية، بسبب ما كنا نسمعه عن الشجارات المعتادة التي كانت تدور فيها. ولكني تلك الظهيرة كنت دائخاً، مهيأ لدخول أي بار. وفي ذلك البار لم أجد مكاناً فارغاً، فقد ازدحمت كل الموائد. وعندما تطلعت جيداً وجدت فقط كرسياً فارغاً عند مائدة رجل أشيب فيما لاحظت النادل يؤشر عليه، بينما كان يلقي بتعليقات بدت مضحكة للذين جلسوا قريباً من الرجل. اقتربت من المائدة، كان الرجل يتطلع في صورة كان أسندها إلى أحد الأقداح الفارغة، ويتحدث بهمس معها. فجأة وجدتني أسأله، إن كان يسمح لي بالجلوس عند مائدته، فرفع رأسه، متطلعاً إليّ، كأي هدية نزلت من السماء. ثم هتف بصوت فرح:

على الرحب والسعة أيها الشاب.

عندما جلست، سمعته يسألني، والابتسامة لم تغادر شفتيه:

أكيد، حبك الأول تركك.

لم أجبه، إنما اكتفيت بالابتسام في وجهه. سحب قدح الزحلاوي الموجود أمامه وصاح بي، فيما راحت عيناه تحدقان في الصورة التي لم أستطع رؤيتها:

بصحة الحب الأول.

وبسرعة دفع القدح بكامله إلى جوفه. وعندما أتى عامل البار يسألني عما أطلبه، أشرت له بربع من العرق والجاجيك، لم يبخل في ذهابه ومجيئه بإلقاء تعليقه وهو يضع الربع أمامي:

– استعد له سيدوخ رأسك بقصة حبه.

استمر الرجل يتطلع في الصورة وكأنه لا يريد سماع ما يقوله عامل البار، وعندما شعر بذهابه، هتف بي:

– اشرب قدحك الأول، وسأحدثك بالقصة كلها.

بالفعل عمرت قدحي بسرعة، ودفعته –كما فعل هو– إلى جوفي دفعة واحدة. حدقت به. وكنت أوشك أن أطلب منه أن يكف لأن رأسي بدأ بطنين عجيب، ولكنه لم يمهلني، إذ كان قد فتح فمه:

كنا صغاراً. كان ذلك قبل سنين، لا أدري كم. لا يهمني عدها الآن، قبل سنين طويلة، وإذا كنت بدأت حبك الأول بهذا العمر، على ما يبدو أنك في العشرين، فقد بدأت أنا معه عندما كنت في الثامنة أو التاسعة. لا أدري، لا تضحك، إنها مفاجأة، تشبه تلك المفاجآت التي تعيشها الآن.

لا أتفلسف عليك. تصور أنك تجلس عند البار في هذه الظهيرة الساخنة، وفجأة يبدأ في الخارج المطر. هكذا هي هذه اللحظات. وإن أجمل الحب هو ذلك الذي لم تخطط له ولم يخططه أحد لك، لا أدري لا أريد الاستطراد، ربما بدت هذه ترهات على أية حال كنا صغاراً. ولا أدري كيف بدأت الأمور. أو الذي أدخل الفكرة في ذهن عصابةالصغار: السينما الآن عندما تذكر كلمة سينما يبدو الأمر عادياً جداً، ولكن آنذاك. لم تكن في بغداد سوى، سينما واحدة على ما أعتقد، واسمها إذا لم تخني الذاكرة، سينما غازي، على اسم الملك . لقد كنت أصغر الشلة، لذا لم أعرف من بدأ في الأول. كل ما أدريه هو أنني قد وجدت نفسي فجأة في الشلة، حيث كنا نلعب في المحلة. وأنه في كل أسبوع، كانت الشلة تجمع جزء من مصروفها اليومي، لتدفعه لأحدهم، من أجل الذهاب إلى السينما، ورواية الفيلم لها بعد خروجه. كانت يومياتنا عانة لا أكثر. ألا تذكر الأهزوجة: «الله يرحم عبد الكريم الزود العانة فلس» هراء، لا داعي من السياسة، فما أوريه لك قصة حب فقط. المهم في البداية كنت أدفع جزء من مصروفي للشلة دون الطلب منها بالسماح لي. لقد بدت لي القصة غامضة. ولكن مع مرور الوقت، ومع سماعي ما يروونه كل يوم من قصص، خاصة إذا ما سمعت أن بعضهم قد رأى بعض الأفلام مرتين، وفي كل مرة يروي الفيلم بطريقة مختلفة، بدأت الحماسة تتأجج في داخلي، وبدأت التفكير، لماذا لا يسمحون لي بالذهاب، وعندما أفصحت لهم للمرة الأولى، قالوا لي إنك ماتزال صغيراً، ويجب أن تنتظر وقتاً أطول، ويجب سؤال أهلك إذا كانوا يسمحون لك. كانت شلة شياطين بالفعل. لقد كانوا يكبرونني في الأقل بثلاث سنوات، لم ألح بعدها إنما بدأت أحلم بذلك العالم ... ولم ينفعني سؤال أمي، التي لم تعرف بأمر الشلة، عن رغبتي في

الذهاب إلى السينما، والتي قالت لي، من الأفضل ترك الأمر لأنني ما أزال صغيراً، وعدم مفاتحة أبي لأنه حتماً سيزعل، ومن الأحسن متابعة دروسي. وفي يوم آخر سألتها: ماهي السينما؟ فأجابتني بأنها مجموعة من الناس تمثل قصصاً من أجل تسلية الناس. لقد اكتشفت بعدها أنها لم تعرف أن بعض القصص لا تسلي إنما تدمر الناس. ولاتعرف مدى دهشتي عندما سألتها، كم مرة ذهبت إلى السينما، باحت لي، ولامرة. وفكرت إذا كانوا لا يسمحون لي لصغري، فلماذا لم تذهب هي. لقد دوخني السؤال، ولكنه كان ثانوياً مقارنة بالقصص التي كانوا يروونها، والتي شغلتني أكثر. لقد ظللت ليالي طويلة صاحياً، أتخيل ذلك العالم -ترى هل هو حقيقة كما يرونه بعضهم؟، إذ يقولون إن الشاشة مجرد حاجز بين الممثل والجمهور، فبعد انتهاء الفيلم، يخرج الممثلون من الجزء الخلفي للشاشة. تخيل!.

وفجأة: صمت الرجل. عمّر قدحا جديداً له. فعلت أنا بالمثل، وبعد أن دفعنا القدح إلى الجوف، أكمل:

– قد تستغرب مما أرويه لك. وتعتقد كالآخرين، أنني مجنون. لأنك قد تتساءل ماعلاقة ما أرويه بقصة الحب. ولكن اصبر قليلاً. بدأت بتعمير قدح جديد. لم أفكر بأنه مجنون كما اعتقد هو: كذلك لم يزعجني فيما لو كف عن سرد القصة، ولكني سمعت صوته يدخل أذني مرة أخري:

مرة تساءلت لماذا والدي وعمي فقط يتحدثان عن السينما والأفلام التي شاهداها ولكن مجرد تساؤل في الرأى، لم أجرؤ علي إلقائه. هكذا مرت أشهر طويلة حتي جاء عمي ذات يوم ليسألني، بينما كان أبي جالساً بجانبه في باحة الدار، عن الهدية التي أتمناها في حالة نجاحي إلى الصف الثالث. وفجأة طنت كلمة «سينما» في ذهني. ولكن رغم صغر سني، إلا أني كنت دبلوماسياً، فقلت له حذراً: هل ستحقق كل رغبة أطلبها؟ فقال

لي ضاحكاً: لاتقل إنك تريد الزواج. فأجبته كلا: أريد الذهاب فقط إلى السينما. حدق بي لبرهة قصيرة، وكأنه يقول لي، من أدخل هذه الفكرة في رأسك؟ ثم استدار ناحية أبي، وكأنه يسأله، وقال له: صار رجلاً. أكيد. فهز أبي رأسه بالإيجاب. ثم استدار ناحيتي وقال: سنسمح لك إذا نجحت الأول. لا أدري لماذا كانوا يخافون من ذهابي إلى السينما، ربما كما عرفت تباعاً، وكما تعرف أنت، أن عالم «أبو أربعين» يعج بكل من هب ودب، من «الفرخجي» حتى «الدودكي» لا أدري. ألم تذهب في الظهر إلى سينما، روكسي أو ميامي؟ والا لماذا يفتش دائماً هؤلاء الكبار في السن عن مكان بجانب الأولاد الصغار. لقد حصل لي ذلك أيضاً، إذ جلس أحدهم بجانبي وبدأ بمداعبة .. إن حيائي يمنعني من البوح لك، ثم همس في أذني، إذا ماذهبت معه إلى المرافق، فسوف يعطيني عانتين. وأنا بكل صدق وسذاجة أجبته، بأني لست محصوراً ببولة. لايهم إنها قصة أخرى، الحاصل، منذ جملة عمي تلك وأنا كنت متأكداً سأنجح الأول. لقد أعدت التحضير للامتحانات عشرات المرات، فيما لم تغادر السينما رأسي. وعندما كنت أقف أمام المعلمين أثناء أداء الامتحانات، كان رأسي يعج بكل تلك القصص التي كان يرويها الصغار. وفي اليوم الذي استلمت فيه نتيجة الامتحانات وعرفت أنني قد نجحت الأول، ركضت بسرعة عجيبة باتجاه البيت، مردداً بصوت مسموع طوال الطريق:

– إلى السينما، إلى السينما.

وبالفعل تلك العصرية ، بعد إعراب أهلي عن فرحهم، أشاروا لي بإمكانية ذهابي إلى السينما. لاتستطيع أن تتصور. لقد اجتمعت العائلة كلها. لقد جاء أعمامي الآخرون من كل بغداد. أخوالي، عماتي، خالاتي تصور. اجتمعوا في باحة الدار، كأنهم يحتفلون برجولتي، وأن لاخوف علي بعد الآن من الذهاب إلى السينما. وعند الرابعة عصراً ألبستني أمي بدلة كانوا

اشتروها لي للعيد. ولكن كان مايزال حينها شهران على ما أذكر. مشطت شعري، ثم أعطتني خمسين فلساً. أربعون لشراء البطاقة، الباقي لشراء الحب أو الفستق. وقبل أن أخرج سحبني عمي إلى جانب ليحذرني من الذهاب إلى المرافق، حتى وإن شعرت برغبة في التبول. وقال لي من الأفضل التبول في الشارع. هكذا ذهبت تلك العصرية إلى سينما غازي بعد أن وصفوا لي أين تقع. وعند منعطف الزقاق وجدت عصابة الصغار جميعها مجتمعة هناك، وكانوا عرفوا -لا أدري كيف- بذهابي إلى السينما. فقالوا لي بطريقة استفزازية: لنر إذا كنت ستقص علينا الفيلم. فلم أجبهم، إنما غادرتهم بزهو وفرح لم يغادرني حتى وصولي السينما ودخولي. وياليتني لم أذهب ذلك اليوم.

مرة أخرى توقف ليأتي علي قدح، لا أدري فيما إذا كان الرابع أو الخامس، إذ كان الرجل لا يني بعض الأحيان، وأثناء حديثه من تعبئة جوفه بالعرق. في الحقيقة لم أختلف أنا عنه، إلا أنني لم أشرب الكمية التي أتى عليها، إذ بالوقت الذي بدأ فيه بطل العرق يفرغ، كنت انتهيت حينها من ربع من الزحلاوي فقط. وبالرغم من الدبيب الملعون لربع العرق. وجدتني أصيح بالنادل ليأتيني بربع آخر. لقد زاد الرجل دوختي. وعندما جاءني عامل البار بربع العرق. فكرت حينها فيما إذا كان الرجل مجنوناً بالفعل. وإلا ما هذا الذي يرويه؟ ومرة أخرى لم يسمح لي بالإسهاب في عالمي، إذ هتف:

- قد تسأل ما علاقة ذلك بحديثنا؟ ولكن اصبر يا صديقي. ستأتيك قصة خرابي كاملة.

صمت قليلاً، ثم أكمل:

لقد دخلت السينما فرحاً. ولكن فرحي انتهي مع انتهاء الفيلم. إذ

وجدتني قد نسيت الرجل الذي داعب .. والذي كان انتقل إلى مكان آخر. لقد كان الفيلم أضواء المدينة أو، لا أدري، على أية حال كان لشارلي شابلن. لقد وجدتني أهتف مع نفسي: إذن هذه هي السينما. وضعت كفي في حضني ، وكورت جسمي، وجعلت جذعي ينزلق بين المصطبة الخشبية ومسند الظهر. فيما انفلتت عيناي محتفظتين بمشهد القبلة التي انتهي الفيلم بها. لم أسبل أنا جفنيّ إنما كانا قد انسدّا وحدهما، بعد أن ظلا مسمرين على الشاشة.، ولم يوقظني لاصوت الموسيقى الذي انبعث فى الصالة بعد انتهاء الفيلم، ولا انبعاث الأضوية، ولا ضجيج المشاهدين عند مغادرتهم الصالة. لقد كنت مخدراً والفيلم دائراً في «رأسي. ولولا صياح البواب بي: ها أيها الولد. انتهي الفيلم، لظللت منغرساً في مكاني، مغلق الفم وكأن القبلة التي طبعتها الفتاة في نهاية الفيلم على شفتي بطل الفيلم، إنما كانت فوق شفتي أنا، لتغلقهما إلى الأبد. هل تعرف أنني كنت أفتح فمي مع انفتاح شفتيهما عندما قبل بعضهما الآخر. وعندما لمحت البواب يؤشر لي بالخروج، نهضت من مكاني بوهن، واتجهت إلى خارج السينما. وعندما فكرت أنني لن أستطيع الدخول إلى السينما بعد أسابيع، ولا يمكنني مشاهدة الفيلم مرة ثانية، اجتاحني أسى عميق. وعندما أصبحت في باحة السينما، حيث يعلقون الصور وإعلانات الأفلام، وجدت صبياً كبيراً يبيع صوراً للأفلام، وهناك وجدت إحدي صور فتاة الفيلم. لقد ظهرت فيها ضاحكة، فيما ألقت الأشقر فوق كتفها. لقد شعرت بفمها المفتوح يناديني، وبعينيها اللتين انفتحتا بسعتهما تحدقان فيّ. سألت الصبي عن سعر الصورة فقال لي: عانتين. فدفعت له. وتناولت الصورة لأضعها في عبي. وعندما أصبحت على بضعة أمتار خارج السينما، أخرجت الصورة لأفتحها مرة أخرى وكأني أريد التأكد من وجودها. وبأنها هي لاغير. لقد كانت هي. الشفتان العريضتان نفسهما.

توقف قليلاً، وحدق بي، كنت قد دفعت بقدح جديد إلى فمي، ورأيته يفتح فمه:

قد تعتقد أنني ذهبت لأروي الفيلم لهم. يقيناً أنهم كانوا هناك بانتظاري. قد جلسوا بشكل دائري، محتفظين بمكان لي في الوسط متلهفين لسماع ماسأرويه، ولكن كلا، لقد درت تلك العصرية، بل ذلك المساء بأزقة كثيرة، كنت بشبه غيبوبة. منتشياً بكل ما رأيته، راغباً في الاحتفاظ به لنفسي فقط، مخرجاً بين لحظة وأخرى الصورة من عبي. لم أعد أتذكر شيئاً من الفيلم. وكنت على يقين، أنني لا أقدر على إعادة روايته بتسلسله كما رأيته. لم أنس الفيلم بالمعني الحرفي للكلمة، ولكني لا أستطيع رواية الأحداث كما كانوا يفعلون هم. لقد تجمعت المشاهد كلها في ذهني دفعة واحدة ، ثم عادت لتختفي بسرعة، وأن أية محاولة مني لسردها ستجعل المشهد ينقلب فوق المشهد، يقيناً كانت طريقتي ستبدو لهم غريبة، بالإضافة وهذا كان الأهم، أن الفيلم لم يعد يهمني. فقط الفتاة وحدها. ياله من جمال. لذا عندما اقتربت من البيت وكان المساء قد حل، والشمس بدت ككرة مشتعلة كما يقولون في القصص، وجدتني أتحايل على عصابة الصغار وأقول لهم، حيث كانوا في انتظاري عند زاوية الزقاق، أنني لا أستطيع رواية الفيلم بسبب دوخة رأسي، ولم تهمني سخريتهم وضحكاتهم التي وصلت سمعي وأنا أدخل إلى الدار. كما لم يهمني تهديدهم بمعاقبتهم لي بعدم السماح لي بالذهاب مرة أخري، كما يفعلون مع كل من لا يجيد أولا يسرد الفيلم الذي رآه. وفي البيت وجدت أمي تهيىء العشاء، فسألتني فيما إذا كان الفيلم قد أعجبني، فقلت لها: نعم. وأشارت لي باستبدال ملابسي والتهيؤ للعشاء، حيث سيأتي أبي وعمي، والذين سينتظرون مني يقيناً سرد الفيلم عليهم. دخلت إلى غرفة النوم. خلعت قميصي، فسقطت الصورة إلى الأرض، رفعتها، ووضعتها بعناية فائقة

فوق مخدة فراشي القريب هناك. وأثناء خلعي ملابسي ولبس البيجامة، لم تغادر عيناي الصورة. ودون وعي مني، بدا أن شيئا يغش نظري. وجدتني أتجه أشبه بالضباب إلى السرير، أرفع الغطاء، لأندس تحته، مقرباً الصورة إليّ. لقد نسيت حينها كل شيء حولي. بل أرغب في تذكر شيء، وحدها الفتاة تستقر أمامي، فاتحة فمها وكأنها تدعوني لقبلة، لم أتباطأ بمنحها لها. وحدها الفتاة تنزلق من فمي، وتستقر مع يدي عند صدري، حيث أحتضنها مسلماً نفسي لنوم عميق و.....

وفجأة توقف عن الكلام، ورأيت وجهه يتقلص، فيما كان يحاول جاهداً منع دمعة من النزول من إحدى عينيه، كنت أراقب هبوطها البطئ، ولكن بغشاوة بدأت بالتمازج أمام عيني، أثناء احتسائي القدح السادس أو السابع، لا أدري. ثم وجدتني أسمع صوته وكأنه يأتي من البعيد:

تلك العصرية بدأ خراب حياتي، لم تغادرني الفتاة على الإطلاق. لافي المراهقة ولافي الشباب، وكنت دائماً قبل أن أنام أتطلع إلى صورتها، وأضعها تحت الوسادة. لقد بحثت عنها في أفلام أخرى فلم أجدها. لا أدري ما إذا كانت مثلت ذلك الفيلم فقط. كل يوم أذهب إلى السينما لعلي أجدها. بحثت عن شبيهة لها بين النساء، فلم أجدها. عبثاً كان أهلي يحاولون إقناعي بالزواج، فلم أقبل. لم يعرفوا بأمر الصورة. وقد كانوا في البداية أخذوا الأمر كنكتة، مجرد نزوة عابرة لي أو خجل لا أكثر. وعندما أجبرني أبي بالزواج من ابنة عمي، قلت لها ليلة الزفاف وبصراحة بأني لست ملكها وأنها لا تشبه الفتاة التي أبحث عنها، فغضبت. ولم يدم زواجنا سوى شهر واحد بسبب التقاليد لا أكثر. بعدها تطلعنا. حينها بدأت عائلتي تجن. وحتى والداي وهما عند فراش الموت أوصياني بالزواج. ولكني لا أرغب، لا أريد خيانة حبي. لقد عاهدتها. إذا لم أجدها، فهي ستعرف يوماً وستأتي لي.

حينها سترى كم عانيت في سبيلها ..... لا أدري.

ولبرهة صمت. أتت يده التي بدأت في الارتعاش على قدح كامل من الزحلاوي. ثم امتدت لتتناول الصورة التي استقرت هناك، فقال لي:

– تطلع كم هي جميلة!

نظرت إليها كانت هي كما وصفها. ولكن اللعنة على تلك الغشاوة التي لم تسمح لي بالتركيز لرؤية ضحكتها الجميلة، ولاشعرها الأشقر الطويل الذي انزلق فوق الكتفين.

سحب الصورة ليعيدها إلى مكانها. وأخذ يحدق بي، فيما انحدرت دموع عينيه، وفجأة شعرت بصداع كبير وكأن مطارق بدأت تهوي على رأسي. الضجة أكثر من أن تطاق، وعليّ مغادرة المكان بسرعة. ودون وعي انفتح فمي بصوت مضطرب خدر:

– أيها السيد العذر. يجب أن أذهب حالاً.

فأجابني بصوت لم يخل من أسى شفيف:

– حسنا أيها الشاب، سأدفع عنك اليوم. ربما غداً أو بعد غد ستدفع عني أنت.

لم أشا أن أقول له، إنني لن أدخل هذا المكان مرة أخرى، إنما نهضت ببطء، ماداً يدي له بصعوبة، لأصافحه، ثم لأتجه إلى خارج البار. كان المساء بدأ بالهبوط. وبدت الشمس بالفعل كرة مشتعلة. توقفت عند الباب قليلاً، كي أطرد تلك الغشاوة التي استحوذت على عيني. فتركتهما بعض الشيء، وعند فتحي لهما، لمحت فتاة تمر بي. لم أرها في الأول، إنما وصلت رائحتها إلى أنفي. كانت رائحة جميلة، جعلت عيني تنفتحان أكثر،

فوددت اللحاق بها وسؤالها فيما إذا كانت تلك الرائحة، طبيعية، أم رائحة عطر ما. ولكني عندما تمعنت بها جيداً، قفزت صورة صديقتي إلى ذهني، فوجدت أن الفتاة لا تشبهها، لذا عدلت، وسرت في الاتجاه الآخر وقد استحوذ عليّ حزن عميق.

❖

الحاجة للنوم

إلى سراب التي تمنت هذه القصة

قبل وقت قصير وصلت نوال مبنى القسم الداخلي. بوهن صعدت السلم المؤدي إلى غرفتها. وإذ أصبحت في الغرفة، رمت الحقيبة والكتب وجلست على حافة السرير. انتشرت في الغرفة ثلاثة أسرّة، منضدتان، ودولابان ألصقت فوقهما ورقتان كتب على الأولى: سَعاد قاسم- كلية التربية- علوم حياة، والأخرى: نضال حسين - كليه التربية- علوم حياة. كانت الطالبتان غائبتين ولم تكن تأسف لذلك بل أنها كانت فرحة. معهن تسود الضجة في كل مكان.

همست «قرف» ثم رفعت وجهها. من مكانها تستطيع تمييز الشمس -عبر النافذة- التي التصقت بسطوح البيوت، وعلقت بالأشجار، ومع سقوط كل ورقة ينسكب شعاع من الشمس الغاربة، يلون الأرض، بحيث أن الشوارع وجدران البيوت لا تستطيع أن تطرد الشمس عنها دون حمرة الخجل. كانت تعبة وذكريات يوم ممل في ذهنها. مع المساء يبدأ شيء غامض بالصغير، شيء كثيف وحالك يسيل في الروح، مثلما يفرش الليل سجادته السوداء، وحين تصيبها شمس المساء بتلك الكآبة المدهشة لا تستطيع كبح جماحها، فتقيض مشاعرها وتتدفق من خزانات الروح الضخمة دفعة واحدة- فكرت أن تخرج اليوم وحدها، وهي لا تملك إلا ساعتين من الوقت (قبل إغلاق المبنى) فهي لم تتجول في شوارع بغداد بمفردها، دائماً مع الشلة «التعسة من الطالبات. لاحت لها -في الذهن- مباني الكرخ القديمة جميلة، ومنتصبة أبداً. لقد أحبتها منذ اليوم الأول الذي جاءت فيه بغداد. إنها لاتعرف سبب ذلك، هناك أمور كثيرة تتعلق بها أحياناً، وبلا سبب.

نهضت لتقف لصق النافذة الصغيرة. وأخذت تحدق في الساحة المهجورة خلف المبني. انفتحت عيناها واسعتين، وتسرب شيء كالقيح من البطن، ثم توقف فجأة في البلعوم. إنها تدوخ بالفعل فمن الساحة انبعثت

روائح كريهة وغير مستساغة.. فيما افترشت الأرض جثث ثلاثة كلاب سائبة. وفي الذهن انبعث صدى الإطلاقات النارية، ووقع أقدام الرجال المسلحين وغمغمة الشارع التي طالت أكثر من اللازم حتى إنها حددت الفضاء، وتغلغلت برعب على السلم والغرفة. لقد كانت ليلة مدهشة بالفعل. وكانت الطالبات كما لو يشهدن مباراة رياضية يصفقن، يصرخن مرحات:

– إنهم يقتلون الكلاب السائبة.

بينما كانت هي تسمع صراخاً بشرياً يختلط مع لعلعة البنادق، عويل، تناد، ولم تستطع تركيز السمع، إذ كان صراخ الطالبات يعلو، يسد طريق النداءات التي كانت تأتيها من البعيد، ويجعلها تركن إلى نفسها قليلاً، ولتفكر ربما كان ذلك جزء من تخيلاتها التي حملتها معها من الجنوب، بل ولتعتقد ربما كانوا بالفعل: «سيقتلون الكلاب السائبة».

لقد كانت نوال مع صباح المطاردين وطراوة الهواء على سطح الارض، مع كل ذلك كانت تشحب وتزداد شحوباً، وكانت رعشتها محمومة، رقبتها باردة، يداها ترتعشان، متجمدة بالليل. ولم يكن موت الكلاب يؤكد إلا لى حزن حاد بحدة هذه الأصوات والصراخات الليلية. وكما المساء يطير على أشباح البيوت ومباني الأقسام الداخلية، متهشماً، مرتطماً، منحلاً كأحزان طالبات المدارس الابتدائية. لقد صرخت ليلتها، لكن الفضاء ابتلع الصرخة. وهتفت رداً على سخريات زميلتها ببعض العبارات. ولكن ما قالته ، أيّاً كان يهرب، ويفقد الطريق منغمراً في غمغمة الساحة. وحين هدأت الساحةاهتزت بعنف وارتعشت بكآبة. لقد ظلت مستيقظة تلك الليلة بعناد، وألم، وتغلغلت حقيقة واحدة فقط في أعماقها: لقد فقدت عيناها البريق، وأنها في مطب الجنون. ولكن ليس

الأمر بهذا الشكل. إنها فزعة ومتحفزة لشيء يحدث. شيء غامض يأتي معه النحيب. يقيناً أن أحد الكلاب الذي اختلط هناك، واقفاً وسط المطاردين ، كان ينتحب حين تشبث بجدار المبنى، ورفع رأسه إليها. كم كانت نظرته حزينة، متمردة على تلك الطلقات الطائشة. حينها نسيت الصرخات البشرية المطاردة. وحينها أيضاً التصقت في ذهنها نظريان . نظرتان فقط دونهما العالم. نظرتان كانت مجبرة علي مواجهتهما. الأولى قبل سنوات حين تشبث بيدها أخوها الذي عاد من الحرب جريحاً، والذي مكث أياماً عديدة في المستشفي. كانت يداه باردة كما لو أن الثلج قد علق بهما. لقد تمتم بانتحاب قبل أن يموت «لا أريد أن أموت» وكانت هي الأخري تنتحب من الداخل. وبحزن امرأة خسرت زوجها في الحرب، أو بحزن طفل لم يجد رغيفاً يأكله صرخت. لكن الصرخة كتمتها جدران المستشفي، وطارت مع الملابس المعلقة فوق سطوح البيوت. والأخرى حين قالت: لـــ «ملهم» في نادي الكلية: «إنني أخاف الناس»

وفسر هو ذلك:

– إنك تريدين القول بأنك تخافيني ؟

قالت: – لا أعني ذلك.

–وهل أسبب لك الإحراج حين أجلس بجانبك. لماذا تخافين أن تحبيني ؟

– سنتحدث عن هذا في يوم آخر.

حينها قال بنفاذ صبر.

– تقصدين سنة أخرى. أعرف أنك في الصف الأول. وصعب على

طالبات المحافظات أن يحسمن شيئاً.

– أرجوك في يوم آخر.

حينها وضع يديه في حضنه. وكور نفسه كما لو أن البرد يلسعه. وتقلص وجهه حزيناً. تلك اللحظة لم يهتز صوتها، إنما ارتعشت يداها. أرادت أن تصرح له بشيء. إلا أن فمها انغلق وارتد لسانها كصمام ضخم. كانت تحاول انتزاع شيء من نفسها. شيء لاتريد أن تنتزعه، ذلك لأنه دخل رؤاها واستحوذ على أيامها جميعاً. هل يمنعها الكبرياء من الصراحة. كلا لم يكن الكبرياء، شيء ثقيل يجثم عليها كاليأس. ولم تحسم الأمر أبداً، استسلمت للنهارات وهي تنقضي.

استسلمت ملتصقة بالتعاسة والحلم اللذين يخلقهما النهار، فيما كانت قد قررت منذ زمن قريب ألاتمنح نفسها إلى الساعات الهاربة المتجمدة في الزمن. وأدركت إلى أي حد وصلت فيما تفعله. تعب ... تعب يجتاحها كفيض أشعة على زجاج النوافذ. ترى من أين يأتي هذا التعب حاملاً معه جبالاً من الخوف؟ ربما كان ذلك متجذراً فيها منذ الطفولة. كانت أمها تصنع لها التعاويذ وتعلق في صدرها قلائد خرافية. وفي الليل تجد بحس الطفولة اللامتناهي كم هي شريرة تلك القلائد. فتخلعها. إنهم يفعلون ذلك في الجنوب. وفي الجنوب تقول الأمهات لبناتهن، «يحفظكن أبو فاضل» العباس «هناك أبخرة دائماً». الحرمل، البخور. ويبدأ صدى التعاويذ يذوب ويتخثر في بنات الجنوب، حتى يصبح أفكاراً يقينية، ويكف عن كونه وهماً شعرياً، أو خيالاً خرافياً. والنساء (الأمهات) حين يفعلن لبناتهن تلك التعاويذ، يفعلن ذلك بصخب وحماسة. وأحيانا بلا سبب، وبأوقات غير متوقعة وتعرف نوال ما كان يتدفق مع تلك الطقوس من الكلمات، والبنات لا يفهمن طبيعة ما يجري «يستسلمن لأعماقهن

المنهوكة، وهناك ينحفر فيهن الفسق المهجور ويجعل خدودهن غائرة، مثقلات بثقل الخرافة، يكسوهن بطبقة سميكة من الاندهاش» إنهن يحملقن إلى الأرض. يتألمن وتتألم معهن نيران البخور في البيوت، الأشياء جميعاً تحدق. الترقب يفيض. ولوقت قريب لم تتوقف أمها عن فعل تلك الأمور معها. إلا أنها هذه المرة تضيف كلمات جديدة لم تسمعها نوال من قبل «إياك من بغداد والرجال» وحين حاولت أن تسألها، أجابت الأم دون أن تنتظر ما تقوله ابنتها «الرجال كالذئاب» حينها أغلقت فمها، وراحت تداعب أطراف ثوبها، مستسلمة لحديث النفس الطويل.

همست في ذاتها «قرف» ومن جنبات الممر ترددت ضحكات وأصوات مختلفة.

«– لابد أنها تتأمل.»

أيقظتها الكلمات من ذهولها، فعرفت إلى أى مدى وصلت فيما تفعله. وحولت عينيها عن النافذة الصغيرة. ورجعت لتجلس على السرير. كم هو مقرف بالنسبة إليها مجيء هاتين الطالبتين . اقتربت أصوات أحذيتهما الآن. ضربتا الباب بصخب:

– كالعادة. كيف حالك أيتها المفكرة المدللة. في كليتكم فرع للفلسفة لماذا لم تذهبي إليه؟

نطقت نضال بتلك الجملة، ووضعت قفصاً صغيراً فيه عصفوران ملونان. وبدخولهما ساد الضجيج الغرفة. دواليب تفتح وتغلق. كتب ترمى، أحذية تطقطق. ملابس ترمى. ملابس تلبس، ضحكات ماجنة. اتسعت عينا نوال بمواجهة العصفورين. فتحتهما لبرهة فقط. ذلك لأن زعيق الطالبتين أغلقهما. وحين هدأتا بعض الشيء. تسرب في الغرفة تغريد العصفورين،

وكأنهما يعلنان عن انتهاء نهار مدهش ومع تغريدهما يمتد يوم بلا نهاية، ربيع يفيض وشمس تتلألأ في مزارع الفضاء. أمالت رأسها، وحولت عينيها عن العصفورين. وتساءلت في أعماقها «تري ماذا ستفعلان بهما؟» نهضت من مكانها وسألت:

– كم الساعة الآن؟

قالت نضال وهي تلبس بيجامة النوم:

– السادسة.

همست نوال

– إذن بقي ساعة على إغلاق المبنى. لن أخرج. سأهيىء الشاي.

فصاحت بها سعاد وهي تحاول إخراج العصفورين من القفص:

– إنك متحمسة وحيوية!

لم ترد عليها. إنما تناولت إبريق الشاي. واتجهت خارج الغرفة. وضعت الإبريق فوق الطباخ الغازي. وبعد أن أشعلته بعود الكبريت قالت مع نفسها: إنني أشتعل. مدت رأسها من نافذة صغيرة كانت في الأعلى. كانت الشمس لاتزال تلتصق في الفضاء. الفضاء الملون وقفت لفترة غير قليلة. تنتظر غليان الماء ومن الغرفة تأتيها أصوات الفتاتين متقطعة، كصوت خشب تقطعه نشّارة الخشب.

– لا تصنعي الشاي على طريقتكم الجنوبية الحقيرة. دعي الماء يغلي.

لم تفكر بهما. إنما حملقت بالمساء وهو يصطدم بزجاج النافذة، يمد

ذيلاً شاحباً، من الضياء.

– لقد رأينا ملهم اليوم.

كان الهواء طرياً. قالت في ذهنها. أهو الربيع؟ إنها تعرف بأن ظلام الليالي الشتائية ورائحتها الباردة لاتزال ملتصقة. دائماً تكون سماء الشتاء خاوية، مستباحة من الغيوم، ترى متى تنتفس الأشجار بصوت مخدد كالصفير لكي تطير أوراقها فوق سطوح البيوت، تشق الساحات والمباني، وتعلن أن صباحاً ينهار.

وبصوت راعش بسبب الضحك، صاحت نضال:

– لقد وصلت أخباركما كليتنا.

الآن فقط انتبهت إلى صوت نضال. فقالت: «كم هي دميمة وقبيحة». وتذكرت أن نضال تملك فما عريضاً وقبيحاً، لايختلف عن فم تلك المرأة جارتهم التي كانت تكثر من الأقاويل، وتتحدث عن أسرار جاراتها.

قالت سعاد

– إذا كان متعلقاً بك، فما الذي يجعله يتحدث مع فتاة أخرى؟ كانت هي تدرك بأنها فقدته مثلما فقدت الكثير في حياتها. كم يسبب لها ذلك من ألم. ويؤكد لها مرة أخرى على الورم، والخوف المزدهرين في الداخل.

أضافت سعاد

– دعيه وشأنه . إنه لا يفيدك بشيء. من الخطأ أن تحب الفتاة شخصاً مفلساً مثله.

صاحت بهما

– لماذا لا تكفان عن هذه التفاهات.

أخذت ملعقة من الشاي ووضعتها في الإبريق. ولدقيقة فقط أو أقل تسربت إلى أنفها رائحة الشاي اللذيذة. تناولت ورقة صغيرة من الأرض ورفعت بها إبريق الشاي، وإذ أصبحت في الغرفة جمدت في مكانها، حتى أنها لم تسمع صوت ارتطام الإبريق بالمنضدة. فمع تسرب رائحة الأثير المقرفة، اهتزت لانقطاع صوت العصفورين عن الغناء. ولاحظت الفتاتان وهما منهمكتان بعمل غريب. كانتا تتعاونان على بقر بطن العصفورين. اهتز صوتها.

– ماذا تفعلان؟

ضحكت الفتاتان دون أن ترفعا رأسيهما

– إننا نحنط يا عزيزتي.

اتجهت إلى السرير. وجلست على حافته، كما لو أنها تهم بالخروج، كما لو انها مطاردة. كانت الفتاتان قد انتهت من بقر بطن العصفورين، وأخذت كل منهما قصبة صغيرة وبدأتا بوضع القصبتين في بطن العصفورين، وراحتا تخيطانهما. لم تكن تتصور أنهما شريرتان إلى هذا الحد. كانتا تفعلان ذلك بهدوء وحماسة غير متوقعة. كساحرتين هرمتين

اصفرّ الأفق مريضاً، كئيباً وفي داخلها تجمع شيء غامض يتنفس بصعوبة. ترى كم ستصبح السماء خاوية ومهجورة بدون الطيور؟ وكانت قد أخذت بهذه الفجيعة كما أخذت بالفجائع السابقة، وكعادتها أخذت تتمتم بأصوات مختلفة. ولكنها وحدها تسمع صوتها المتردد. وإذ صاحت بها سعاد

– ماذا تقولين؟

قالت سائلة:

– أعني كم درجة تأخذان عن عملكما؟

أجابتا سوية

– خمس عشرة درجة عن الدرس العملي.

ردت بصوت ليس فيه جرس

– إنه ثمن قليل لقتل عصفور.

ضحكتا

– ماالذي يزعجك. إننا لا نحنطك

لم تجب نوال. إنما أصغت لسماء تردد صدى لطيور سائبة. صدى يبعث أسى وحزناً شفيفاً، يصدم زجاج النوافذ ويتغلغل مرحاً إلى البيوت، صدى يمزق النهارات الهاربة، ويحلق مع السماء المهلهلة، يذكرها بعصافير على شكل وجوه أووجوه صريعة على شكل عصافير رأتها تصرع أمام عينيها. ولبرهة حدقت بالفتاتين، وخرجت من الغرفة. جلست على السلم، واسندت رأسها إلى الحاجز. وهذه المرة لم تفكر بشيء عظيم أو خارق، إنما استسلمت لإغفاة قصيرة، لا لأنها تعبة وتحتاج النوم، بل لأنها أرادت بحماسة ملحة، أرادت أن تحلم فقط.

ذلك المساء الغريب .. هناك

لم يكن الخبر قد شاع في البلدة. لكنه هذا المساء انتشر بسرعة عجيبة بين السكان. فقد راحت النساء يتهامسن فيما بينهن فوق السطوح، حيث ينشرن ثياب الغسيل. وأخذ الرجال يهزون رؤوسهم وهم يدلفون إلى بيوتهم. فيما شب الأطفال كالنار. وضعوا دائرة حول «مرهون» وهم يصرخون به: أبله .. أبله ... أبله. ولولا الأطفال الذين التفوا حوله دون أن يعلموا من أمره شيئاً كما يحدث دائماً، لاستنتج الناس كل شيء بسرعة. دون تلك الـــ: بلا شك أو: ربما التي كانوا يتناقلوها بينهم. من يدري ...؟ لعل الأمور لا ينبغي أن تسير بهذا المنحى. لكنه المساء الغريب، حين وقف مرهون قبالة دار سيد البلدة: يلوح بيديه، ويمط جسده بأكمله بحركات وإيماءات غريبة. تستدعيه بعض الأحيان أن ينطرح فوق الأرض. يفرد ساقيه، ثم يتلوى كحشرة ضخمة. ويحتضن الارض. وكأنه يود أن ينشب أظفاره بين مسماتها ، فيما ينفتح فمه قاذفاً كميات كبيرة من اللعاب تشكل إطاراً أبيض كرغوة الصابون حول شفيته. ويتوتر الشريان الذي في رقبته، وبحركة متوترة أيضاً. تنفتح الشفتان لتقذف صرخة عالية، تنتشر في البلدة كقطع الغسيل التي ترتفع فوق السطوح، وتصعد إلى الفضاء لتخدده، مثلما تفعل شمس المساء التي تلونه كفراشة حمراء –تنحل الصرخة، ومعها الشمس إلى قطرات ندى حمراء– ثم يذوب الصوت بين الأشعة الذائبة في الفراغ. بعد أن يغطي البلدة كالغبار. تلونت وجوه الصغار الذين تجمهروا حول مرهون الذي استطاع الآن أن يشق طريقاً من بينهم. ويركض إلى طرف البلدة. وهو يلوح بقبضتيه صوب البيت الكبير، فيما شرع وجهه يعكس زبد المساء، الأحمر الغاضب –زحف الأطفال خلفه: مجنون. مرهون. مجنون.

لهذا الحين والسكان لم يعلموا مالذي جرى بالضبط. سوى أنهم راحوا يبحثون في ذهنهم عن سر العلاقة التي بدت لهم غامضة جداً. لكن

ظلت في رؤوسهم صورة القبضتين اللتين انضمتا بجنون مخيف صوب تلك الدار.

شاع الخبر. أجل شاع الخبر هذا المساء –وإذا ماقلب السكان الأمر لاسيما سكان الأكواخ التي عند أطراف البلدة– والذين تابعوا مرهون بنظراتهم حتى مغادرته الشارع. ثم عاينوا البيت الكبير بريبة –فإنهم ينتهون في آخر الأمر إلى القول:

– من يدري ..؟

من يدري ...؟

لكن السيدة التي وقعت الآن عند الشرفة تعاين المشهد عن كثب تعرف كل الأشياء. فقدا استيقظ كل شيء في ذهنها. وذلك لم يحدث لها للمرة الاولى. فهي ما إن تزيح ستائر النافذة أو تقف عند الشرفة –مثلما تفعل الآن– وتلمح الشارع، يبين لها فارغاً في الوهلة الأولى، يشيع فيه الصمت، فتود أن يستمر ذلك طويلاً. لكنها ما إن تلمح تلك الكتلة المتوترة تدخل من الطرف البعيد من الشارع، حتى يبلغ الذعر بها مداه فتهجس أنها ستدخل إليها داخل البيت، فهي ترى ما في عيني مرهون من نذير وشر يتقد. شر سيتفشى يوماً في كل البيوت، وينغرز نقطة بعيدة في الفضاء. ولن ينفعها أن تسدل الستائر –كما تفعل الآن– أو أن تغادر الشرفة. الصمت يرين على الشارع، ويصرخ في كل زوايا البيت. ماذا فعلت بنفسي؟ تقلب حياتها وجهاً وقفاً دفعة واحدة. فتحس أنها لن تستريح أبداً في هذا المكان. تنهض بيأس وتقف عند الشرفة مرة أخرى. شرعت الشمس بقذف صهدها الممتقع إلى الجهة الأخرى من الكون. فيما أخذ الظلام بالتكاثف، تحولت السماء إلى بنفسجي، يغطي اللهب المشتعل فيها مرة أخرى. فكرت: لن يصدق الناس مجنونا، وإن صدقوه

فذلك ضرب آخر من الجنون! وإذا ماقالت في سرها تلك الجملة. توطن النفس أولاً. لكنها لا يمكن أن تحسم الأمر بهذه السهولة. فهي تشعر بارتجاف. ارتجاف في جسدها في الأخمص حتى السمت. وهي تعلم ولكن بكبرياء. أنها على عتبة أعمق معرفة يكتشفها ذهنها. فتتصور كيف ستؤول الأمور في النهاية. لكنها لا تملك اليقين الثابت. سيعرف الناس جميعاً ما الذي حدث -ربما توجسوه هذا المساء -وهذا ما تخشاه فربما هناك من سيهمس بأذن زوجها. مثلما تحدثوا سابقاً عن ماضي حياتها- حين فصلت من التعليم لسبب لايعرف، فقد قال الكثيرون إن السبب هو علاقاتها الشاذة مع طلابها.

- من يدري ...؟

من يدري ...؟

يطعنها ذلك التفكير. هكذا وبسرعة تنتهي من كل شيء دفعة واحدة كانت لها حياة. حياة لا تستطيع أن تفلتها من بين يديها. ربما لم تتصرف بشكل منتظم. فقد آلمها أنها فعلت مافعلت -الان- كان يسيطر عليها إحساس بأن حدثاً رهيباً سيقلب حياتها. كان ذلك الإحساس يبدأ عذباً وهادئاً في أول الأمر. ثم يشتد بعد ذلك ليكون لحمة وعين حياتها. ويمتلكها الشعور ذلك شيئاً فشيئاً. لا أثناء غياب زوجها. إنما حتى بحضوره. بجانبها، وعلى نفس الفراش، فهي تحسه غائباً عنها كل الاوقات. لا بسبب سنه الكبيرة أو ممارسته المقيتة معها. والتي تبدأ وتنتهي بعجالة رغم شحتها. إنما لسبب آخر لا أعرف سره وكانت إذا ما زحف الليل. وران الصمت. يستيقظ الذي في داخلها، يستيقظ بإثقال، ويزداد يثقل ويثقل حتى الألم. فتنتفض مسعورة كحيوان مخيف. تتجه صوب المرآة. وتلمس وجهها بعنف بإحدي يديها، وباليد الأخرى تلقي الثياب جميعها إلى

الأرض. ثم تبدأ بإمرار يديها في أزقة جسدها. تتمتم بأصوات مختلطة –صوتها مبحوح– وكثيراً ما يرتفع نطقها لإحدى الجمل، وهي تؤشر على جسدها فيالمرآة محذرة: لايمكن أن يموت تميل رأسها إلى صدرها. وقد سرت فيها حمى غريبة، فهي لا تستطيع أن تحول بصرها. وتزداد الحمي. فيما يفرقع اللهب المشتعل فيها ويتحول إلى أنين خافت يأخذ في التصاعد، كالدخان ، بطير حارقاً جسدها. تزحف نحو الشرفة تصر أسنانها. وتمسك حديد النافذة بعنف –مثلما تفعل الآن– كي تطرد ذلك الإحساس المعذب الذي يتدفق ساخناً في داخلها. الإحساس الذي لم يغادر مخها أبداً. والذي تعود إليه في وحدتها. حين تعاين عري نفسها. وكانت كلما تصورت علاقة ما عنيفة –غير مفضوحة– هكذا تتصور– ينتصب فجأة في ذهنها ذلك الـــ –مرهون– الـــ –العابر الاعتيادي – لا تستطيع أن تسمح لنفسها بالتفوة باسمه. فذلك يبعث فيها الاشمئزاز. الاشمئزاز الذي لم تفعله يوماً في حياتها. فتعود إلى توترها. وتجيل النظر باتنباه إلى الشارع، كان الليل يسري في المدينة بسرية. الشارع مقفر، فارغ إلا من تلك الكتلة المتعبة التي افترشت الأرض بتوجع بعد يوم منهك، يوم مليء بصراخ الصبسية وصياحهم: المجنون .. المجنون ... المجنون. كان بإمكان عينيها أن تلمحا كل شيء من خلال الشرفة . دونما عائق – أن تلمحا الملابس الممزقة، الوجه الهزيل، الجسم الناحل الذي تكشف وسط ذلك الليل. لكنها ، فجأة، وثبت إلى الشارع، بعد أن قطعت المسافة بسرعة مذهلة. وثبت نحوه كعملاق. تسير بثوب شفاف، يبين جسدها شفافاً من خلفه. نظرت إليه عدة دقائق، مستسلمة لتلك الرغبة المشتعلة التي صخبت دون أن تقدر منها فكاكاً. ارتعشت. والتفتت صوب الشمال واليمين.

– مرهون . تحرك.

ضربته بقدمها. لم يكن يبدو عليه أنه قائم. إلا أنه لم يكن يتحرك

كررت ضربتها ، فجفل فزعاً. وفتح عينيه باتساعها. كانتا تعبران عن قلق خفي وكأنهما تقولان:- ماذا يريد العالم، العالم كله، مني؟

قالت له بهمس، واضطراب ممزق: تعال معي.

لم ينظر إليها في تلك اللحظة، ولم يتحرك . فصاحت به بنفاذ صبر:

- تعال معي.

ذعن لندائها، يسير خلفها بتوجس. ترى مالذي يقوله مرهون في سره الآن؟ كان بوده أن يهرب. فهو لا يأتمن لأي كائن -لكنه لا يدري أية قوة تجذبه وراءها. فهو ما إن يهم بمغادرة مكانه حتي يتسمر في المكان. فتحت له الباب: ادخل. اتجه مسرعاً إلى الداخل. لكنه انعطف فجأة إلى إحدى زوايا الحديقة- كانت الحديقة تتقدم البيت. وقد ارتفعت أشجارها عالية حتى السطح- وهناك تسلقت بعض النباتات افظللن المكان بكثافة شديدة. فهي قد التحمت مع أغصان الشجر، فيما امتد العشب على الأرض كثيفاً -نادته- في الداخل يا مرهون. ألا تريد شيئاً من الطعام. فأشار لها برأسه:

ظل متشبثاً في مكانه. وكأن ساقيه تنفذان في الأرض. فيما بدا جسمه معلقاً في الهواء لتأرجحه. اتجهت صوبه. وقفت قبالته: إنك تريدها هنا أيها المجنون. ثم أضافت: كيف لي أن أفهمك. أن هذا العشب سيدمرني.

لم يفهم. ودّ من صميمه أن يهرب. لكنها لم تمهله. فقد رفعت ثيابها على قدر ما استطاعت حتى ظهر النهدان. اضطرب مرهون. وتموج تموجاً خفيفاً لايدرك. ضحكت. كانت قسمات وجهها جامدة. فيما غاصت أقدامها البيض في العشب الذي التصق بها. تهدل شعرها كالشباك. مالت رأسها ناحيته أكثر. كان يأكلها بعينيه اللتين امتلأتا بدهشة عميقة:

دهشة ازداد سعيرها، حينما لاحظها. تتمدد على الأرض. تحرك من مكانه بخفة. تقدم يسير على رؤوس أصابعه. تنفس بشدة. وسكن قريباً منها. ركع أمام الجسد المنطرح بحرية، في حين بدأ يلهث كالحصان، أمسكت مسكت رأسه. كان الاضطراب يمزقه:- تعال هنا. سحبته إلى فخذيها، لمس جسدها الشديد البياض الذي بدا له ناعماً ودافئاً نظر إليها من تحت طويلاً. فلم ير غير حركة ساقيها. مرة إلى اليسار، وأخرى إلى اليمين، فيما بدت له تلك المنطقة السوداء، أسفل البطن بين الفخذين. غريبة ومبهمة كالليل. تصورها خصلات مهرة جامحة، مهرة حلم بها مراراً، فوقها تأخذ به حيث يشاء، تلمسها بأصابعه، بهدوء وبحذر مد تلك الخصلات. كانت هي ترى تردده وخوفه منها. فلم تمهله طويلاً. إنما نضت الثياب التي تجمعت فوق وجهها. رفعت جسمها عن الأرض قليلاً. وبحركة ملتوية ألقت الثياب إلى الأرض. وبحشرجة ضخمة ضمته بين ساقيها: إنك تقتلني. حينها لم تسمع جواباً. ليس هناك ألبتة سوي لهاثه المتصاعد. وحركاته المجنونة، حتى أدركت أنه يقطعها أوصالاً. فقد كان يمرغها فوق العشب بعنف شديد، يسحقها على الأرض، يتقلب كطائر، فتتقلب كقشة، متهشمة بين يديه. وإذ استكان بعد وقت ليس قليلا، فإنما ليعاود الكرة مرة أخري، وأخري -هكذا- حتى أنهكها الإعياء. فلم تقاومه، إنما استسلمت له، حيث أخذ يصب فيها جنونه المسعور، جنونه الذي لن يغادرها أبداً. فهو النذير الذي انتشر في كل ساعات جسدها وأصبح عنصراً من عناصر حياتها. إنما هي تمرغت معه، لقد توزع فيها، لم يبد لها مألوفاً كما كان في السابق، فهو قد أشعل الفتيل. وهي تدرك أن ذلك لم يحدث صدفة. فقد حدث ما تمنته. وكان ذلك يبعث في نفسها الرضا. بنفس القدر الذي يبعث بها الاشمئزاز. لم يكن في ذهنها أنه سيشل حركتها تماماً. فهي كانت تتصور أنها ستفعل به ماتشاء. وهي قد فعلت ذلك. لكن

لم يكن في كل الأحوال طوع يديها. فهو قد مارس قسوته معها. وها إن المحظور قد وقع هذا المساء. كيف واتته الشجاعة ووقف بباب المنزل يصيح بصوت يثقب الآذان. يصور بيديه كل دقائق الفعل. كلا. محال أن يحدث ذلك.

أين هو مرهون الآن؟ لم يسترح مرهون في مكانه، في الزريبة. فهو كان يحطم كل شيء تقع عيناه عليه. فهو يمتلك اليوم قوة رهيبة. لذا لم يستقر به الأمر في ذلك المكان الذي يعتبره بيتاً له. حتى عاد أدراجه إلى الشارع. وجلس القرفصاء. يبكي بأنين خافت قبالة المنزل. متشبثاً بذلك المكان. لم يبد عليه أنه نائم فهو يتحرك بعض الأحيان حركات خفيفة. ينهض. ويجلس. يجلس، وينهض. تسري به حمى غريبة. وفجأة نهض بعد أن حدق البيت بدقة. خفضت السيدة رأسها، وتوارت خلف الشرفة. وحين رفعت رأسها بعد قليل. كان مرهون قد غادر مكانه بيأس تابعته بعينيها، وفي رأسها تلمع فكرة جديدة. قالت في سرها:- سأسوي الليلة كل شيء معه. تشبث مرهون بالجدار. وعاين حديقة المنزل، ثم قفز إلى الأرض بسرعة. واتجه إلى زاوية الحديقة. وهناك راح يعاين المكان ويتلمسه بحزن بالغ. عدلت السيدة من نفسها. ونزلت بسرعة محيرة. كانت تراه جالساً كرجل عجوز وجهه بين كفيه، ويئن بخفوت. بإمكانه أن يلمحها الآن إذا ما استدار إلى الخلف. لكنه لم يفعل ذلك، فسهل لها ذلك الأمر. سارت صوبه وكأنها حشرة ضخمة تهم أن تجمع نفسها. وفجأة وقفت قبالته بهدوء وبلا جلبة حملق بها بعينيه. دوامة تلف الأرض وتلفه. ما إن يهم بأن يتجه نحوها، حتي يرتد بذعر. فها هي تخرج مسدساً صغيراً من تحت ملابسها. التصق مرهون بمكانه، وبانت له السيدة كعملاق متحدب، كتفاها هابطان. وظهرها ينوء بثقل. سكن كل شيء، حتي أن ثوبها الذي أطاره الهواء قليلاً، قد أحدث صوتاً بدا غريباً لمرهون، تمزق حينما لمح

فخذيها يبرقان فجأة. فركع أمامها. لم ينظر إليها ولم يحتج. ولم يتحرك. إنما هكذا ينغرس في مكانه. وكأنه ما من شيء، وما من قوة في العالم يمكن أن تمنعه من تلقي تلك الإطلاقات الثلاث التي اتجهت صوبه بسرعة محيرة. سقط إلى الأرض وبدت ملامح وجهة حادة وساخرة. جفلت السيدة بفزع، فهي قد شعرت بحركات ثلاث في بطنها. ألم يكن سبب ذلك الإطلاقات؟ ترفع ثوبها حتى النهدين. فتري، تكوراً غريباً لم تلاحظه سابقاً. فيما بدا النهدان ضامرين. تسقط إلى الارض. وتكتشف -للمرة الاولى- وبإدراك حاد أنها حبلى.

تداعيات صبي

في أحيان كثيرة، كنا نغادر أنا و أبي المنزل صوب النهر. وإذا ماسرنا فعلينا أن ندفع أقدامنا فوق الجادة الترابية التي كانت تشق البستان كالنهر، وتعلو عن أرضه، حتى تقترب في بعض الأحيان من نهايات الأشجار والنخيل، تبدأ من مدخل البستان عند البلدة حتى نهاية الغابة، حيث تنحدر كأفعى تتلوى وسط المكان لتنتهي بالنهر. كنا ننظر إلى الأغصان البيضاء، فلا تبين لنا إلاّ عندما نخطو على الطرف القريب من الحافة، أيضاً نميل بأعناقنا إلى الأسفل، وعندئذ لاتلوح لنا سوى الأغصان المتجاذبة والسعفات المتشابكة، الطيور التى تطير كغيوم ضبابية.

أكثر الأحيان كنا ننتهي عند صخرة على الضفة الملاصقة للنهر. كان أبي يجلس على تلك الصخرة. وقد قال لي مرات كثيرة: «إنه نفس المكان الذي كان يجلس عنده أبي منذ زمن». أما أنا فأبتعد عنه أحياناً مسافة بعيدة بعض الشيء أعبث بالحشائش القريبة في الماء. وأمازج الحيوانات الصغيرة التي تقفز عن التصرف كصبي. كنت أفكر إذا ما نويت التصرف هكذا، فإن ذلك لا يحدث إلاّ حين يكون بجانبي أحدهم (أعني الكبار). فأجلس في مكاني وقد انحنت فوقي إحدى أشجار الصفصاف المجاورة. كانت الشجرة قد ألقت أغصانها إلى الجانبين كضفيرتين ضخمتين، فيما كان جذعها قد بدأ بالتشقق. كان ذلك يحدث في نفسي تقلصاً شديداً لا أعرف متى أستطيع إيقافه أبداً. وكنت أستغرق طويلاً في النظر وفي سمعي أحس (هكذا يخيل إليّ) صدى رقيقاً لأصوات (بشرية أو حيوانية) لاسيما طيور المساء التي تبعث أسى شفيفاً يكاد يكون آدمياً. كنت أستطيع سماع كل شيء، حتى نفسي يأخذ بالتصاعد ويتسرب من فمي عنيفاً فأتوقف عن النظر لحظة كغريب ضلّ وسط ظلمة البساتين. لم يكن من الصعوبة لصبي في مثل سني أن يقول لنفسه: لن أفكر. فأنا أصغر من أن تستغرقني تلك الأمور، وأمور أخرى، الشجرة مثلاً، النهر المتدفق. أبي. لم أقل لنفسي ذلك. وكذلك لم أسمح لها

أن تفكر في هذ الأمر.

وأبي يحيرني في أمره في الأيام الأخيرة، فعندما كنا نبدأ بالصيد قبل زمن، وحينما يرمي بالسنارة أستطيع أن أتبين بسهوله عدد السمك المتصارع، وإذا ما رجعنا إلى البلدة (عند حلول الليل) فإننا نحمل في الدلو كميات كبيرة من السمك أحياناً نضطر إلى جلب دلوين ... في الأيام الأخيرة، بدأ الحزن يلفنا في دوامته. فعند الطريق إلى البيت، كنت أتبين وجه أبي، كدراً، التجاعيد والخطوط غارت فيه أكثر، وقد بدا وكأنه قد استسلم لتلك القوة الملتهبة،التي ربما سرت فيه دون أن يستطيع منها فكاكاً، الشيخوخة. فيظهر لي سر ذلك الحزن، لم أوطن نفسي لهذا الهاجس، لقد قلّ صيد أبي. وربما يخشى يوماً نرجع فيه إلى البلدة فارغي الأيدي. لم يكن يعتاش على السمك. وأنا أعرف عنه مهنا أخرى بإمكانه مزاولتها، وعندما سألته عن الصيد قال: هواية. فقلت له: لكنك تعرف مهناً أخرى! أجاب: سيأتي يوم تختار فيه ....

لم يكن ذلك صعب الفهم بالنسبة لي، وحسبت الأمر أبعد مما تصورته في الوهلة الاولى. وحدست أن الصيد أصبح جزء من حياته أيضاً وأنه لن يتخلى عن مشروعه، مهما تقادم عهده فيه:- «استرداد النفس والصبر والكبرياء كاف أن يبطل التفكير في اليأس». هذا ماقاله لي. ربما يبدو لي مريباً إن هو استمر في فعله رغم ما يحسه وينظر إليه بعينيه. كانت لدينا قصبتان مجهزتان بخيوطهما وسنارتيما. في الغالب كان هو يحملهما، وكنت أكتفي بحمل دلو متوسط الحجم كنا نملؤه بالطعم. وكان طعمنا الأسماك الصغيرة التي كنا نحصل عليها بإلقاء قطعة قماش صغيرة وسخة، يمسك كل منا طرفاً وندسها في الماء، وبعد وقت قصير تتجمع أعداد كبيرة من الأسماك الصغيرة. ومنذ المرة الأولى همّ بأن يخرج الطعم من الدلو فسألته أن يترك الأمر لي. وبعد أن ألقي الطعم أمسك بإحدي

السنارتين. وكثيراً ما أبتعد عنه، حيث الصفصاف القريب إليه، وهناك أبدأ، وإذا ما ضجرت أجلس على جذع الشجرة، أكتفي بإنزال السنارة من هذا المكان (رغم أن الوضع يكون صعباً بعض الشيء) وإذا ما ناقشت الأمر أعدل عن رميها، أتخيل في ذهني مقدار المسافة التي تفصلني عنه.

إلا أنني أستطيع رؤيته وسماعه إذا دققت النظر من خلال الصفصاف وأعشاب النهر. لكني أشيح البصر عن جهته وأبدأ أصيخ السمع. فأسمع عندئذ أصوات طيور المساء. أصواتا آتيه من بعيد .. فأتصور أن بساتين كثيفة تقع في طرف البستان البعيد (يسميها أبي غابات) وأتخيلها ضخمة وأكثر اتساعاً من هذا المكان. فأشعر بشيء غريب، ربما هو شعوري بالوحدة وسط هذه الحديقة الضخمة فأدرك أنني مهجور، وإذا ما استمر الوقت طويلاً ينتهي التفكير بي إلى أبي. فبدونه أحس بالاضمحلال، وأدرك أنني عاجز عن فعل شيء. فليس هناك لي غيره وإذا ما اشتد ثقل التفكير، فإنني أهرع إليه، يمتلكني رعب كبير يلفني بدوامة تلف معها الأرض لفاً. فأجد التسلية بجانبه. وأنا أرى الأسماك المتجمعة بقربه. لكنها الأيام الأخيرة: قلّ الصيد. حتي أننا استغنينا عن السنارة الثانية. حتى سألني أبي أن أكف عن إلقاء الطعم وأكتفي بمراقبته. لكني اعترضت لاسيما وأنني كنت أخاف التفكير والوحدة. كذلك فأنا أريد أن أبقى بجانبه مجرد صبي يراقب حركاته ويرعاه. وكنت أندمج في هذه العلاقة كصبي بنزق. رغم أنني لم أسمع منه أي تأنيب سوى مرة واحدة.

مرة حين ابتعدت عنه كثيراً. كنت أفكر في مباغتته. سبحت من الجهة البعيدة عنه، وغطست إلى القاع كسمكة. كنت أنوي الإمساك بسنارته فلربما يظنني سمكة .. يقيناً كان ذلك ضرباً من الحماقة (كما قال أبي: إنك تسخر مني!) حين أخرجت رأسي من الماء وأمسكت بالقصبة. لم يكن صعباً على عينيه أن تلمحاني. فما إن يدفع بها من جهة اليسار حتى

يجعلني أنتفض خجلاً وخوفاً. وهذا ما فعله. خرجت مطرقاً ولم أجد في وجهه أي علامة للفرح (كنت أتصور أنه سيبتسم لمداعبتي له). فأدركت ما ألم به من ألم. ترك السنارة جانباً ونهض. وقف لحظة. ظللت خلالها واقفاً. أدار لي ظهره. وحدق في الأفق. كانت نظراته لاحدود لها. همّ بأن يتحرك من مكانه فلبست ملابسي، وحملت القصبة والدلو، فسار وأنا وراءه. لم يحدثني. إنما ظل محافظاً على صمته. كنت أتمنى لو أنه يعنفني أو يلومني. لكني فهمت كل شيء دفعة واحدة من خلال نظراته، فقلت بحزم: لن أفعلها مرة ثانية. حدث ذلك منذ مدة، وظللت محافظاً على وعدي، لا أغادره بل أبقى بجانبه طوال الوقت .. كان الضجر يأخذ مني كل مأخذ. فليس لدي أي عمل بعد أن ألقي الطعم. وأبي يعرف ذلك. كنا نحصل على سمكة بالكاد. حتى أنني شكوت إليه وسألته أن نكف، فقال لي: ستختار يوماً. وإذ حدثني بذلك، أشاح البصر عند الطرف البعيد من النهر الذي يجري مندفعاً وصاخباً .. لم أفهم تلك الجملة بدقة، فنظرت إلى الصفصاف ونبات الحلفاء الملاصق للنهر. وكأنه يعرف ما يدور في ذهني قال لي: (كان أبي يعرف مهناً كثيرة) لم أطلب منه أن يشرح لي أبعد من ذلك، فشاغلت نفسي بدعك الأوراق الساقطة عند المكان. كانت رائحة الأوراق المبتلة الداكنة تصل أنفي وكنت أصغي إلى الماء وهو ينفذ في الأرض، وكان ينفذ من الفتحة الصغيرة بجانب الصخرة، حيث يشق له ترعة صغيرة تدخل البستان. كان المساء يهبط فوق الأشجار والأرض والنهر نظرت إلى أبي. كان قد رمى بسنارته أكثر من مرة وأمال رأسه على صدره بيأس وقد استسلم لأمر لا أعرف سره. كان الصمت ما ينفك يثقل علينا، صمت المساء، صمت الأرض، صمت الأشجار، صمت أبي. ولبرهة قصيرة جداً كان الصمت يقطع بصرخات طيور المساء التي تملأ السماء، وتنتشر فيه أغنية واحدة. وفجأة سمعت لهاث أبي، وقد أخذت أنفاسه تتصاعد، شيئاً فشيئاً، فيما راح يضرب الماء بالسنارة بعنف. ثم نهض كعملاق ساجداً على

القصبة وقد ظل خيطها في الماء، ثم نظر إليّ بعينين صفراوين لاعمق فيهما.

طرفت عيناه وسط ذلك الهواء القاطع. لم أحتمل نظراته. خفضت بصري،. وأسكنت النظرة صوب الصخرة التي وقف عليها بكامل جذعه. ربما أدرك سري فسأل: مالذي ألم بك؟ لم أرفع رأسي، ولم أجبه، إنما غرزت النظرة علي كتلة الصخر، فلاحظت أنها قد تآكلت من الأسفل، كأن ثمة آثار مخالب عليها، ففهمت بسرعة معنى النغمة الحزينة التي صدرت من فمي: لا شيء.

رجل في سيرك

قادتني إلى المكان الذي حددته لجلوسي. لم تضطرب ملامحها، بل لم تبد قلقاً لأمري، على العكس، احتفظت بالجدية التي طفت على وجهها منذ أن سحبتني إلى مدرج الملعب، كأنها تيقنت من استسلامي لها والسير خلفها بإذعان.

لم أخيب ظنها، تبعتها بالفعل، كأن ما سيحدث بعدها لن يعنيني، لذا لم تثر سحنتها المهيأة لما سيحدث، غير المتوترة، أية ريبة.

جلست عند المكان الذي أشارت لي به، واضعاً يدي بين فخذيّ، معبراً لها مرة أخرى عن خنوعي الكامل. لم يكن وضعي خافياً عليّ، لكن حيلتي قليلة، كأن ما من قوة في العالم تمنعني تلك الساعات من التكوركرة الصوف.

انفتح فمي يسألها:

– الآن أيتها السيدة.

ألقت عليّ النظرة الباردة ذاتها، التي لم تخل من الإشفاق أو ربما السخرية. لم تركز عينيها عليّ طويلاً سوى لحظات قليلة، ثم لتنظر باتجاه النفق الصغير الذي يبدأ من تحت المدرج عند يساري. وينتهي لا أدري إلى أين!

– انتظر. لن يدوم الأمر طويلاً.

هكذا أجابتني، بدت حينها متحفزة لأمر ما. لولا عيناها المتوثبة، المتطلعة تلك اللحظة، لاعتقدت أننا الوحيدان اللذان اقتعدا مدرج الملعب.

كان الصباح قد انبلج منذ ساعات، فيما طفقت الشمس بإلقاء صهدها الساخن، رغم ذلك اليوم الربيعي الذي استرخى تحت سماء زرقاء

صافية، وأمامي حيث تناثرت ضفائر الأشعة، استلقت ساحة الملعب الجرداء طيعة لاحتضان الشمس لها، أما الظلال القليلة التي تركها المدرج عند الفسحة الممتدة بين نهايات المصاطب والسور الذي يفصل الساحة، النهار الذي شرع بالتوغل تدريجياً، يصاحبه صمت يصرخ في المكان، يغطي الملعب، الفضاء، يجعلني أتكور على نفسي أكثر، محارة لا تسمع سوى ترددات جدران داخلها، مهيأ لما سيبوح به وجهها الذي غلف بالصمت، والذي يجعلني بما يحويه من عينين سوداوين كبيرتين، وشفتين غليظتين ذات خطوط متعرجة، أتعرج مع تقاطع يدي أيضاً مصغيا إلى صفيري الداخلي، قررت الكف عن الحرية منذ ارتكاني لما ستقوله لي هذه السيدة الساحرة.

فجأة لمحت وجهها الدائري الأسمر يفيض بسرور مباغت. بدل أن أسألها عما حدث، وجدت نظراتي تنزلق مع نظراتها حيث النفق الممتد تحت المدرج، عند يساري. لبرهة أخذ يترامى إلى مسامعي من مكان ما، من عمق النفق أصوات بشرية وحيوانية، غناء صاخب، قهقهات وأصوات فرحة، تناد، ثم صياح أشبه بالعويل، يختلط ثمة غالباً بنباح كلاب، خوار بقر عواء ذئاب، زئير أسود، نهيق حمير، صهيل خيول، نعيق بوم، نقنقة ضفادع، تغريد عصافير ....أصوات حيوانات اخرى، لاأعرفها، بل لم أسمع بها من قبل.

لقد مضت دقائق عديدة، طويت نفسي أكثر، انغلقت .. بينما لم يكف وجهها عن إعلان سعادة جعلته يفقد جماله بصورة غير مفهومة لي، لاسيما وأن الأصوات لم تنقطع عن الابنعاث من أعماق النفق، لا تدخل سمعي فقط، إنما تخترقه وبحرقة. تحركت السيدة خطوتين، فيما خرج من النفق رجل طويل القامة، ذو شاربين غليظين، مفتول العضلات، لم يخل وجهه من وسامة ذكرتني بجيكولو رأيته في أحد الأفلام بصورة عابرة.

توقف كلاهما عن الحركة، حدقا ببعضهما، ثم رأيته يرمي سوطاً غليظاً أمامه ويهتف بها متسائلاً:

– هل جئت به؟

فصاحت به مبتسمة

– لم يكن صعباً. كان طيباً ولزجاً كسجين.

هنف الرجل مستغرباً

– غريب.

فأجابته ضاحكة.

– ليس هناك ماهو غريب. فالشاب يعيش وحيداً منذ زمن طويل. بلا عمل. لم يكن صلباً كما توقعنا.

سحب الرجل سوطه الغليظ. مرره بين يديه، بعد أن بصق في راحتيه، مبدياً انتشاءً واضحاً. هز رأسه برضى، اتجه إلى عمق النفق، مستمراً في تمليس السوط الأسود الثخين. اختفى. ثم سمعته يصرخ بصوت يغطي الأصوات الأخرى التي لم تنقطع للحظة عن الانبعاث.

شعرت برجلي ترتجفان بعض الشيء ثم تنغلقان ملتفتين على بعضهما أكثر. كأنني تكهنت بما سيحصل لي وسط الساحة بعيداً عني، أصبح كل شيء مريباً إليّ، زاد توتري، صوت السوط الذي طغى على سمعي. عبثاً حاولت إخراج يدي من حضني لوضعهما فوق أذنيّ. لقد استقرا في مكانهما، وكأنهما قد شلتا إلى الأبد بصعوبة بالغة انفتحت شفتاي لتسألها:

– والآن أيتها السيدة؟

فأجابتني بصوت لم يغادر لهجته الآمرة:

تعرف ما تفعل. سيأتي دورك فوراً.

عندما لاحظت عدم فهمي لما يجري، أردفت وبسخرية هذه المرة:

– ستنزل بعد قليل إلى ساحة الملعب. سيريك الرجل

ماهو عملك في السيرك.

لم أفهم ما تعنيه. لم أتفق معها على عمل. وعندما هممت بسؤالها انغلق فمي باستسلام. نظرت إليها بصورة خاطفة، لم تبد لي جميلة، كما كنت قد رأيتها عندما تبعتها، مستسلماً، حتى هذا المكان،. حولت بصري عنها لألقي نظرة إلى الملابس التي ابتلت تماماً. لا أدري فيما إذا كانت الشمس قد بدأت بقذف رذاذها الحار بهذه القوة اللاهبة. إذ أحسست بالعرق يسيح على مساماتي ويغمرني برطوبة حارة، مالحة، لاسعة، لاتجعلني أدوخ فقط، إنما تشعرني بلسع السوط الذي بدأ بالهجوم فوق جلدي منذ الآن.

ليلة «ماري» الأخيرة

لقد قررت ماري أن تكون هذه ليلتها الأخيرة. للتو غادرها آخر السكارى والذي دفعته بصعوبة خارج البار. أغلقت الباب. أطفأت الأنوار وتركت مصباحاً واحداً، فتحت إحدي الجرارات وأخرجت شريطاً لتضعه في جهاز التسجيل الذي استقر قريباً من زجاجات الويسكي التي عكست التماعات مضطربة. ولبرهة انبعث صوت أم كلثوم «كل ليلة .. وكل يوم أنا بانتظارك يا حبيبي»، وقبل أن تسحب قدحاً وتضع فيه بعضاً من الثلج ثم بعضاً من العرق الذي أخفته خلف صناديق البيرة، أخرجت من مكان ما، تحت، صورة للمسيح، وكعادتها كل ليلة مسحت الغبار عنها وعلقتها في الطرف القريب من المسجل.

اندفعت إلى كرسي قريباً من الباب. لم تضع لها أية مزّة. جلست هناك وكأنها لم تجلس منذ سنين. تحسست القدح فوجدت برودته كافية، جرعت قليلاً منه ثم أرجعته إلى مكانه عند المنضدة أمامها، مسحت فمها بكم ثوبها. من مكانها، حيث جلست، تستطيع أن ترى ولو بغير وضوح تام شارع الوطني الذي بدا فارغاً تماماً. كانت هي كعادتها قد أنزلت ستائر البار لتترك فقط شقاً صغيراً – وكأنها قد دفعت بآخر كائن تلك الليلة.

لم يبدأ الشارع فارغاً فقط، إنما بعث في نفسها ملالاً غير عادي. لقد استفزتها تلك الظلمة، وزادت اضطرابها كما تفعل كل ليلة. حتى ملهى الوطني الذي كان يثير صخباً في ليالي الصيف، بدا لها كخرابة قديمة، فيما بدت النخلات التي ارتفعت عند جدرانه وحيدة ذابلة. منذ أشهر ولم ينبعث أي ضوء. لقد غادرت معظم الراقصات التي عرفتهن حتى المصريات أضافت ماري في داخلها، لقد سمعت تذمرهن أكثر من مرة، فقد أعلن جميعاً عدم احتمالهن الرقص دون استقبال زبائن جدد. كل ليلة يخطر بذهنها ذلك، وتضحك بحزن في داخلها كلما ترى لائحته التي غطاها الغبار. تهتف في نفسها أيام زمان «بالفعل أيام زمان» ليس الملهى فقط، إنما شارع الوطني

أيضا. لقد فقد البريق، مثلما فقدته عيناها، وليالي الصيف الجميلة فقدت أمامها كل إيقاعها، وبدل البحارة والسكارى والفضوليين الذين كان يموج الشارع بهم، صرخ الفراغ وكأنه يعلن لها كل ليلة أنها بالفعل «أيام زمان».

دفعت ماري جرعة أخرى من العرق، وتركت رأسها يستقر عند الجدار خلف الكرسي، وفي رأسها لم ينبعث فقط صوت أم كلثوم «يا واحشني بتفكر في مين» إنما أسلمت نفسها لذكريات تلي. وفي تلك اللحظة مرت بذهنها كل تلك السنين التي عاشتها في هذا البار. وفي سرها ضحكت. همست «من لايعرف بار ماري». كم من الرجال مروا هنا. لم يشرب في بارها أهل البصرة فقط، إنما مر بها الكثيرون، الذين كانوا يبوحون لها بحبهم. كانوا يقولون لها «ها. ياعيني عليك. أنت صاحبة البار ماري» ربما هي الوحيدة التي لم تجد ضرورة وضع لائحة عند باب البار كعادة أصحاب البارات في كل مكان. كانت على يقين أن كل شارع الوطني بضجيجه وزحمة باراته لا يستطيع إخفاء بارها على الإطلاق. وكانت آنذاك، في معظم الليالي تضع كرسياً عند باب البار، ومن داخل البار تأتيها تعليقات السكارى، منهم من يبوح لها بحبه، وكيف أنه يحترق من أجلها. ويدفع كل ما يملك من أجل ليلة واحدة معها، آخرون يكتفون بإعلان حبهم لها بغنائهم. ربما هي الوحيدة التي وضعت في بارها لائحة تعلن أن الغناء مسموح، ومثلما هي تعرف زبائنها، فهم يعرفونها أيضاً. لم تكن على علاقه برجل. هكذا ومنذ أن ورثت البار عن عائلتها في الخمسينيات وهي تشتغل وحدها، وكانت تكتفي بين الحين والآخر بعامل واحد، ولكن في الأيام الأخيرة حيث شح الزبائن، لم نعد بحاجة لأحد، لقد بدأت هي بفعل كل شيء إعداد المزّة، تقديم الويسكي، البيرة –الممنوع الوحيد في بارها هو العرق. لقد سمحت لنفسها فقط بشربه.

كل ليلة. وكل يوم أنا بانتظارك تردد مع نفسها وتشيح البصر عن شارع

الوطني الذي استمر بهدوئه المستفز.

سحبت من حقيبتها التي ركنت عند مكان قريب منها مرآه صغيرة وراحت تعاين نفسها، لقد فقدت الكثير من بريقها وبدت ملامحها هرمة مع نفسها همست: «تعب». تعب يجتاحها كالظلمة التي تغزو المدينة- كذلك الصمت الذي غطى الشوارع المحيطة بالبار - أعادت المرآة إلى مكانها، وسحبت علبة من حبوب الڤاليوم، وضعتها أمامها، أشاحت بعينها عن الحبوب وكأنها لاتريد أن ترى. وفكرت هكذا بدأت مع علب الدخان قبل أن تقرر تركها نهائياً. لماذا تركت التدخين؟ لاتعرف لماذا، مثلما لا تعرف متى بدأت فكرة الحبوب في رأسها!؟ أمس، أول أمس، اليوم لاتدري. بل متى بدأ شارع الوطني يغير إيقاعه؟ أو متى كف الكورنيش عن بعث أضوائه من زاوية الشارع الآخر المنحدر من هناك وحيث بارها؟ بل متى بدأ رأسها بالدوخان؟ لا تدري وتتذكر فقط، والآن بالذات جملة ذلك السكران؟ الذي مر بها عابراً ذات ليلة ولم تره بعد والذي قال لها بحزن «تعبت حتى من دوخة رأسي» ... آخ، تضطرب الآن، وتلمح في رأسها أكياس الرمل التي بدأ الجنود برصفها منذ زمن في الكورنيش ثم في شارع الوطني، الآن تتوالي الذكريات فى ذهنها، وفجأة يصبح منظرهم قريبا لها، كأنهم بدأوا بذلك أمس. لم تقترب أكياس الرمل فقط في ذهنها، إنما أصوات المدفعية، صرخات النساء والأطفال، صياح الجنود، ضجيج الطائرات. ليس ذلك فقط، إنما طنين ذباب أيضا. لماذا يأتي إلى ذهنها الآن منظر تلك الذبابة التي اضطربت بفوضى مخيفة عندما سمعت عويل الطائرات في إحدي الظهيرات، والتي فرّت لأكثر من مكان وكانت تتابعها وكيف أنها عندما وجدت مكاناً عند زجاج النافذة، انفلقت إلى أجزاء زجاج النافذة الذي تحطم بضجيج الطائرات. لقد التصق المشهد فى ذهنها كما التصقت تلك الذبابة مع الزجاج. منذ تلك الظهيرة وكلما سمعت طائرة محلّقة، لمحت أمامها

ذبابة، وحتى تعليقات السكاري لم تثنها عن سماع أزيزها. ومثلما كانت تضطرب تلك الأيام، تضطرب هذه الليلة، ليست الذبابة ما يستفزها الآن، إنما أمر أبعد من ذلك. لقد أدركت ومنذ زمن أنها تشيخ، وأن الأمور ماعادت على مايرام كما كانت في السابق. لقد فقدت الأيام بريقها، وهي الأخرى تشعر أنها تذوي، بعض المرات تمسك جلدها المترهل وكأنها تريد إرجاعه إلى محله. وإذا كانت تلهي نفسها تلك الأيام بأحاديث السكارى ونزهاتها عند الكورنيش، فإنها افتقدت كل ذلك في الأيام الأخيرة. بدل السكارى اكتظ شارع الوطني بالجنود. وبدل نيونات الحانات، أخذت أكياس الرمل تملأ جانبيه، حتى إنها شعرت أن طوقاً من الرمل يمتد من الكورنيش ملتفا عند حي الجزائر داخلاً شارع الوطني حتى نهر العشار. رمل. أينما ذهبت. حتى سوق الهنود لم يعد يفوح برائحة البهارات إنما بالرمل فقط. شارع الكويت أيضا. بل تستطيع أن تشم رائحة الرمل حتى ساحة أم البروم. رمل. تهجسه يدخل مناخيرها، ماتعرفه أيضاً أنها مع الأيام لم تعد تشعر برغبة في التنزه. إلى أين؟ لقد أحاط الرمل بالبصرة. وكأن رمل أمّ قصر والزبير قد رمل حتى «الخندق» المليء بالمياه. رمل، عطش تأتي على بقية الكأس لتتركه إلى جابنها ثم تبدأ في الشرب من زجاجة العرق مباشرة «عطش» تهتف في داخلها، وربع العرق الذي كانت تكتفي به قبل أشهر، لم يعد يكفيها هذه الأيام. لقد تضخم ليصبح نصفاً، وهي تخشى أن تصل إلى اليوم الذي يكف حتى النصف عن إطفاء حريقها، إن مجرد خطور هذه الفكرة في ذهنها، يزيد اضطرابها.متى بدأ ذلك؟ لا تدري، في ليلة ما .. ربما قبل سنة أو سنتين؟، بل قبل أسبوع. لا تدري. بل لاتريد أن تدري وتأخذ جرعة أخرى من القنينة وكأنها تدفع شيئاً صعباً إلى جوفها. تتمتم «إنها الليلة الأخيرة»، كأنها تريد الكف عن كل ذلك ومرة واحدة. تعاين صورة المسيح التي علقتها وتهتف به «وحياتك إنها لليلة الأخيرة» بالفعل لقد قررت أن تكون ليلتها الأخيرة. لقد ملت وحدتها التي لم تعد تطيقها. معي ماري التي

تستطيع أن تقول قرارها –كما تردد مع نفسها– ليس أمام المسيح فقط إنما أمام كل زبائنها الذين لم يبق منهم سوى نفر قليل، والذين يقلون كل ليلة، ماري التي لم تتزوج لا لأنها راهبة، إنما لأن معظم الرجال الذين عرفوها لم يصدقوا أنها لم تكن فى أى يوم عاهرة، ماري التي أباح لها نفس هؤلاء الرجال بحبهم الملتبس قبل وبعد سكرهم، ماري التي لم تسلم جسدها سوى لمداعبات عابرة ذلك لأنها هي أيضا قد بدأت مع الأيام تعتاد على «طهارة مريم» –كما تسميها– والتي أعجبها أن تحافظ عليها، ماري التي لم تعد تطيق فوق ذلك لا أكياس الرمل، ولا فراغ الكورنيش وشارع الوطني ولا ضجيج المدافع والطيارات –ماري تلك قررت أن تكون بالفعل ليلتها الأخيرة –لذا نهضت من مكانها لترفع صوت المسجل قليلاً «كل ليلة وكل يوم .. أنا بانتظارك يا حبيبي»، ثم لتعود إلى مكانها وتأتي على بقايا قنينة العرق كلها، دفعة واحدة و غير مهتمة بالحريق البسيط الذي اندلع في جوفها. «ليكن» هتفت في داخلها، ثم مدت يدها لتتأكد من وجود حبوب الڤاليوم التي جثت أمامها بانتظار تنفيذ قرارها. تفحصتها بدقة. مازالت هناك مرة أخرى لم تفكر في سؤال نفسها لماذا قررت أن تكون هذه ليلتها الأخيرة؟ لقد كانت على قناعة وكفى. «ليكن»، ولبرهة شعرت بأن جفنيها تعبان بل ثقيلان. لم ترد أن تستسلم. كانت ترغب وبقوة أن تفتحهما. آخ تعب .. كلا. لم تشأ أن تتركهما ينغلقان مثلما يريدان. لقد قررت أن تقاوم نعاساً خفيفاً بدأ يجتاحها، وإذ عزمت أن تنهض، وتدفع بالوهن الذي سيطر عليها فجأة، سمعت طرقات خفيفة على زجاج البار. طرقات أتتها خفيفة للوهلة الأولى ثم أخذت تزداد قوة بعد ذلك، مما جعل عينيها تنفتحان على اتساعهما كأنهما تحاولان استعادة كل بريقهما السابق.

وعندما حاولت معاينة باب البار، هبط جفناها بخفة، وفي تلك اللحظة بالذات لمحت جندياً مضطرباً، لم يبد عليه أنه سكران، إنما كان يدق

بخوف وكأنه يحاول اختراق الزجاج -لبرهة فكرت أنها هلوسة نصف العرق الذي أتت عليه، لكنها على يقين من أنها تستطيع أن ترى ملامحه التي بدت لها واضحة، الم يكن صغيراً. بل متوسط القامة، في الثلاثين، بدون شوارب وبيريه. كانت كمن فوجئ في طقسه، ولبرهة ظلت مسمرة في مكانها لا تدري ماذا تفعل إلى حين سماعها صوت الإطلاقات التي انبعثت من الخارج، بل هجستها تأتيها قريبة من زاوية ملهي الوطني، وأثناء محاولتها فتح عينيها لترى ما الذي حصل، لمحت رجالاً من الانضباط العسكري ينتشرون في شارع الوطني، فيما تشبثت يدا الجندي أكثر بزجاج البار. كان يفعل ذلك عبثاً، إذ لم تلمح ماري آنذاك سوى حركة سقوطه عند باب الحانة. وفي تلك اللحظة نسيت ماري أنها ليلتها الأخيرة، بل كفت عن التفكير بأكياس الرمل التي أحاطت بالبصرة وبتلك الذبابة التي التصقت في ذاكرتها أكثر مما التصقت بالزجاج المنكسر. كلا لم تفكر، لا بالكورنيش، ولا بشارع الوطني، بل لم تفكر بالبار الذي كانت جالسة فيه. لاتدري لماذا لم تفكر في كل ذلك أبدا، وأن ما فعلته أنها دفعت بعينيها باتجاه صورة المسيح العالقة هناك. لبرهة لم تعد تسمع صوت أم كلثوم. اضطربت واجتاحتها مرة أخرى دوخة غير عادية، شعرت بجفنيها يسقطان بخفة وكأنهما يريدان مغافلتها. وقبل أن تجتاحها رغبة النوم العنيفة، لمحت الجندي يخرج من الصورة العالقة على جانبها، محاطاً بالرمل هذه المرة، ليسقط ببطء، بل دونما حراك عنيفٌ عند باب الحانة.

❖.

المحتويات

قصة هروب جندي عادي ٧
حدث ذات مساء ١٩
الرقصة الأولى ٣١
المدنية التي اسمها العمارة ٤٥
يوم توقفت الحرب ٥٥
حد .. ذات صباح ٧١
بورتريه امرأة محزونة ٧٩
هنا .. في تلك المدينة البعيدة ٨٧
تلك الظهيرة الساخنة ٩٧
الحاجة للنوم ١١١
ذلك المساء الغريب .. هناك ١٢٣
تداعيات صبي ١٣٣
رجل في سيرك ١٤١
ليلة «ماري» الأخيرة ١٤٧